عادل علي الغامدي

# أسير خلف الأسوار

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الفارابي

عادل الغامدي

# أسرار خلف الأسوار

مجموعة قصصية

# المقدمة

تسلقت تلك الأسـوار المشيدة من الألـم والمرصوفة بالآهات... اقتحمتها حاملاً قلماً حبره الصدق وريشته الأمان... تداخلت بين ردهات الأسرار... فتشت في صفحات العذاب... تعمقت في جنبات الغموض.. أبحرت في شطآن الوضوح... حاورتهم بقلب حان... أجابوا بكلمات تشكل حروفها الدموع... بعبارات على أسطر الجراح... في كتاب الماضي الذي يستمدون منه قوة وعزيمة لحاضرهم المشرق وإشعاع أمل لمستقبلهم المنير.

اخترت الإبحار في هذا العالم لما يكن بداخله من أسرار قد تخفى على الكثيرين سواء أكان ذلك الخفاء متعمداً بطرائق معلومة أم غير ذلك بسياسة مرسومة من قبل من أودعوا تلك الأسرار بين ثنايا أفئدتهم، إن جميع ما نثر بين صفحات هذا الكتاب واقع عايشه من نقلوا أحداثه بجميع تفاصيله وبكل مواقفه وكانت دموعهم وآهاتهم ونبرات الأسى والحسرة العامل المشترك أثناء بوحهم

بهذه الأسرار والوقائع، ولقد اجتهدت في إظهار الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة واستندت إلى بعض المقربين ممن عاصروا وغاصوا وأخرجوا ما بدواخلهم من أصداف تحمل الألم ومحارات تختزن الشقاء من أجل إيصال ذلك بأدق أحداثه، وأتنقل في ارض المعركة بين ضحايا جيوش المخدرات المتفاوتين في الوصول إلى الهاوية ولكنهم يشتركون في بلوغهم النهاية لكي أستطيع انتقاء أكثر المآسي تأثيراً والتي أطمح أن يصل صداها مدوياً إلى الأرجاء الفسيحة لكي يتم الهدف ويتحقق المراد من الإفصاح.

آملاً أن تقي مساحات البوح هذه، من نحبهم.

## قبل البدء

«سقوط الإنسان ليس فشلاً...
ولكن الفشل أن يبقى حيث سقط».

## شكراً... أديب!

في رحلة حياتي محطات لا تنسى يمتزج في طياتها الأنين.. وتتداخل في جنباتها الآهات.. إنها حياة أشبه بالممات.. فقصتي لا يمكن أن أسردها بكاملها في هذه الأسطر.. ولا يمكن أن أنثرها على هذه الصفحات ولكني سوف أحاول أن أقف عند بعض تلك المحطات، وأبدأ سطورها من طفولتي التي عشتها بين أحضان أسرة تسودها المحبة والألفة وتغمرها الفرحة والسعادة.

حباني الله أباً عطوفاً وأماً حنوناً وأخوة متحابين.. لم تكن طفولتي تمتاز بشيء عن أقراني، كانت تعتريها براءة الطفولة ويزينها شيء من شقاوتها في ذلك الحي الشعبي القابع في أطراف مدينة جدة الذي التحف الماضي بكل تفاصيله وبكل تراثه وإرثه الطاغي على النفوس الطيبة مروراً بالمباني الطينية التي تفوح منها رائحة الحب الصادق بين أفراده وانتهاءً بظلمات لياليها الساحرة المشعة بفنار الأمن والاستقرار، والجدير ذكره أن هناك ما يميز

SCANNED BY
JAMAL HATMAL



هذه الأسرة ويطغى عليها، هو روح التنافس والتفوق الذي غرسه والداي وزرعاه في أبنائهم العشرة، ستة ذكور وأربع بنات... كنا دائماً من العشرة الأوائل في صفوفنا الدراسية وما إن وصلت إلى الصف الثالث الثانوي حتى أصبحت شاذاً عن قاعدة التفوق والمنافسة، لقد تكرر إخفاقي في تلك المرحلة ومن ثم أتيت بمصطلح جديد ولفظ غريب داخل أسرتي ذلكم المصطلح هو «الرسوب».. لقد رسبت لثلاث سنوات متتالية في القسم العلمي ومن ثم قررت الخروج من المدرسة وفسح المجال لأخوتي الذين تستوطن أرواحهم الجد والمثابرة وأن احميهم من عدوى الرسوب والعقدة التي حطت رحالها وسكنت نفسي المحطمة وأطبقت عليّ جراء إخفاقي في هذه السنين، ومن هنا بدأت بوادر التحول حيث أصبحت أجد ضغوطاً من أخوتي جميعهم ووالدتي، إذ لا يتحرجون من نعتي بالألفاظ التي تجرحني ومحورها الأساس كوني (عاطلا) عن الدراسة وعن العمل أيضاً... لكن والدي كان فسحة الأمل بأحرف كلماته المنيرة ولمساته الحانية هو من يجبر كسري ويصبرني ويجعلني أصابر وأستبصر الغد المشرق.. كان أخي فيصل الذي يكبرني يتميز عن شخصي في كل شيء ومحبوباً من الجميع وكنت أنا من يوجه إليه الذم وهو من يشار إليه بالبنان، ولّد ذلك حقداً دفيناً في داخلي تجاه أخي، وأشعل النار التي لا تحرق إلا معنى الأخوة بداخلي وكان من يقذف لهيبها حطباً من

يعلم بأنه أخي عدا والدي!! حاولت جاهداً أن أنتقم منه وأضيق الفجوة التي تتسع بالاختلافات بيننا لرد اعتباري في مواقف متعددة ولكن باءت جميع محاولاتي بالفشل ولكنها كانت تزيد من حدة تلك النيران الملتهبة في هشيم فؤادي، قررت الهروب من تلك الأجواء التي أشعر فيها بأنني بلا هوية... وبلا وجود داخل أسرتي.... وجدت ضالتي في صديقي وليد ابن العم جمال الذي كان منزلهم يلاصق منزلنا والأسرتان جارتان منذ زمن... كنت دائم الذهاب إليه وكنا نِدّين، اجتمعنا ثلاثة في السمر أنا وهو وثالثنا لعبة الشطرنج ولايشتت سمرنا إلا بعد أن يخلع الليل رداءه معلناً رحيله ويرتدي الصبح ثيابه مبشراً بقدومه! لعبة الشطرنج التي أحسست بين مربعاتها المتعددة وبين أحجارها المتفاوتة أنني أبحث عن تميزي، عندما كنت أمسك بإحدى قطعها التي تمثل رمزاً للجيوش المتحاربة وأتقدم لإطاحة خصمي بعدها أشعر بنشوة الانتصار من أعماقي وكأني أطحت واحداً من أولئك الذين تعودوا التعدي على شخصي، أظهرت في الأربعة والستين مربعاً تفوقاً ملحوظاً على جميع من نازلني وكان الدافع وراء إصراري على تعلم هذه اللعبة والخوض في أسرارها ومعرفة مهارتها هو أنها لعبة للأذكياء كما يُقال عنها، كنت أريد من هذا أن أعوض النقص الذي أصبحت أشعر به وخاصة أمام ذلك الأخ (الفيصل)، وفي يوم من أيام الأعياد وكما جرت العادة وأنا أتسامر مع وليد

جاءنا سامي ذو القامة الفارعة والبشرة السمراء والابتسامة التي لا تفارق مبسمه وهو صديق منذ زمن لوليد.... كان سامي مستغرباً ومندهشاً لجلوسنا في هذه الأيام معللاً ذلك بأن من هم في سننا في أفراح وبهجة والكثير منهم خارج البلد لقضاء هذه الأيام السعيدة وأخذ يحقرنا ويشمت بنا.. ولكنه فاجأنا بعدها بأن لديه الحل بقوله:

- عندي لكم سيجارة تلف بكم العالم كله تروحوه وأنتم هنا مكانكم ولا تتحركوا...

وأخرج من جيبه سيجارة ملفوفة بطريقة مختلفة وأغرانا بتدخينها معللاً بأنها «التذكرة» التي نستطيع من خلالها التنقل بين أرجاء العالم الفسيح..... رفضت ذلك وتذرعت بخوفي من أهلي وأخذت أردد:

- لا.... لا... ما أقدر... مقدر أخاف أهلي يكشفوني أو يشموا ريحتي وبعدين أروح في داهية....

لظني بأنها سيجارة تبغ عادية وكنت وقتها لم أدخن التبغ، وأسترسل في حينها بتوضيح الأمور وتبسيطها ومن ذلك بأن ليس لها رائحة ولن ينكشف أمري وأنه «حشيش» للمزاج فقط..... رفضت أما وليد فراح يدخن معه واستمر الاثنان في تحقيري بأنني خائف وجبان والكثير من الصفات المنافية للرجولة.... وكان وقع تلك الكلمات على قلبي يحطمني ويجرح ما بقي من كبريائي التي

تعاون اخوتي على القضاء عليها... بعد برهة من الزمن.. أصابتني الدهشة من الحال الذي أبصرت فيه وليد فلم تظهر عليه آثار من تلك السيجارة مما دفعني إلى أن أصرخ بأعلى صوت لحروفي وأمسكتها بقوه زائفة وقلت له:

- هاااااااااااااات.

لم أعلم بأن هذه الكلمة سيكون صداها عشرين عاماً من العناء... وفعلاً كانت تذكرة الدخول لا إلى العالم الفسيح الذي أوهمنا به سامي ولكنها كانت تذكرة للدخول إلى عالم الضياع والترحال في مستنقعاته! كنت وقتئذ ابن التسعة عشر عاماً وفي ذلك اليوم المشؤوم رجعت إلى المنزل وفي طريقي كنت بين رحى افكاري وهواجسي، تشدني يمنة وتلقفني يسرة في كيفية الاستقبال الذي سوف أجده بين أسرتي، حيث كنت خائفاً قلقاً بأن يفتضح أمري، ومن هو الذي سوف يهل على جسمي سياطه قبل الجميع ومن سوف يتفوه بالعبارات ويحرك (الاسطوانة) المعتادة التي تحمل الاهانات والشتائم! فوجئت بما جرى.... لم يشعروا بشيء بل بالعكس أسعدتهم خفة دمي التي أظهرتها بصورة واضحة، مما جعلهم يطلقون الضحكات وأدخلت الأسرة في أجواء السرور والمرح مما دفعني إلى أن أدخن «الحشيش» باستمرار وبعد أن أجبرنا ذلك الذي ارتدى ثوب الصديق على دفع المال من أجل الشراء ولم يقف عند هذا الحد بل أرغمنا على التعرف على من

يبيعون تلك «السموم» وبدأت رحلة العناء والشقاء إلى أن أصبح المال عقبة في الطريق إلى هذه النشوة القاتلة.. تعمقت في التفكير للوصول إلى منفذ لدخل ثابت.. قررت أن أعمل وبدأت رحلة البحث عن عمل أجد فيه نفسي وأحقق أحلامي وما أصبو إليه وبعد أن أضناني تعب البحث وجدت مرادي ومطلبي في إحدى الدوائر الحكومية وخلال فترة قصيرة من الزمن تدرجت إلى أن توليت منصباً حساساً نوعاً ما في تلك الدائرة ولكن الدخل المالي من راتبها لم يعد يكفي لمتطلبات حياة الضياع.... حياة الإدمان، فكرت في زيادة دخلي ولم أجد سوى اتباع الطرق المشبوهة... أصبحت أتقاضى رشى وهبات وأتحايل على البعض من خلال موقعي الوظيفي وجنيت مبالغ طائلة ومن بعدها أغدقت على من حولي بالمال والهدايا، والجزء الأكبر كان لشراء الحشيش فتغير حال الجميع ممن يعرفني وأصبحوا يتنافسون جاهدين لكسب ودي..... كانت نساء الحي يأتين إلى أمي من اجل إيجاد الحلول والتدخلات «الواسطة» لأزواجهن وأولادهن من خلال وظيفتي مما زاد من قدري في محيط أسرتي وعلا شأني عند من حولي... أشار عليّ والدي بالزواج لأنه أصبح بمقدوري أن أفتح بيتاً وأن أكون رجلاً يعول أسرة، استهوتني هذة الفكرة وأنبت نفسي لماذا لم أفكر فيها من قبل؟ فهي الملاذ الوحيد والمكان الآمن عكس ماهو الحال في منزل أسرتي، ولأستمتع بحريتي مع معشوقتي...

ونديمتي سيجارة الحشيش التي يتعاظم ولعي بها يوماً بعد آخر، فكرت في أنه لابد من أن استغل هذا الزواج بشكل صحيح بما يرضي غروري ويرد لي اعتباري، قررت أن أتزوج بنت خالي التي كان جميع أفراد الأسرة يعلمون أنها زوجة المستقبل لأخي فيصل منذ زمن الطفولة كما جرت عليه العادة في محيطي، وأصررت على الزواج بها لأصفع بذلك أخي وأرد له بعضاً من صفعاته القديمة...... ولأبرهن للجميع وأولهم أخي بأنني أفضل منه، أخذت أقنع خالي (أبو العروس) وأغريته بالخدمات والتسهيلات التي كان يحتاج إليها من تلك الدائرة التي كنت أعمل فيها وفعلاً استطعت، وطالت محاولات الإقناع تلك والدتي أيضاً بضرورة تزوجي بنت خالي لأن فيصل سوف يمضي مشواراً طويلاً في التعليم وأنا الآن جاهز للزواج ومتطلباته وبعد عدة محاولات اقتنع الجميع وتزوجت ابنة خالي وفزت بها ولكني لم أدرك بأنني خسرت نفسي قبل أن أخسر أخي.

انتقلت إلى بيت الزوجية، كانت زوجتي تصغرني كثيراً في السن وكنت في بداية زواجنا أحاول أن أخفي عنها تعاطيّ الحشيش ومع مرور الأيام تطورت الأوضاع وأصبحت أدخن الحشيش علانية في المنزل، وفي تلك الأثناء استقلت من عملي لوضعي في مكان أقل أهمية وكان ذلك عقاباً من رؤسائي في العمل نتيجة إهمالي وغيابي المتكرر والأهم هو سلوكي الادماني الواضح

ناهيك عن السمعة التي كنت أحظى بها والتي يعلم بها الداني قبل القاصي، لم أستطع توفير تلك النقود التي كنت أحصل عليها بالطرق غير الشرعيّة في مركزي السابق في تلك الدائرة، بقيت لفترة طويلة في المنزل بلا عمل إلى أن حصلت على وظيفة في دائرة أخرى وبراتب لا بأس به، استمررت في العمل وانضممت إلى صحبة من أهل « المزاج والكيف» أو بالأحرى أهل الضياع والشتات!! في ذلك العمل، لم أكن أفكر في التدرج الوظيفي أو في الإبداع المهني أو الابتكار أو حتى تطوير مهاراتي الوظيفية، بل كان همّي الأوحد هو كيفية الوصول إلى كنز يغنيني مثلما كان هو الحال في وظيفتي السابقة والبحث عن الدجاجة التي تبيض ذهباً من اجل شراء الحشيش... بعد جهد مضنٍ وتفكير عميق وجدت ضالتي وأصبحت أجني مبالغ هائلة بالنصب والاحتيال في تلك الوظيفة، وكان ما يميز رفقة الضياع هؤلاء أنهم من هواة السفر إلى الخارج والتنقيب عن المعالم السياحية ولكن بالمفهوم الذي تختزله عقولهم ويوافق تفكيرهم، فهم ليسوا من هواة زيارة المتاحف أو الآثار القديمة أو المعالم الجمالية أو الاستمتاع بالطبيعة الخلابة وجمالها الساحر أو استنشاق نسمات البحر على الشواطئ الذهبية الفاتنة، بل إن مفاهيم السياحة في قاموسهم هي الجهة التي يتوافر فيها المخدر من عدمه والأمور المرتبطة بذلك!!!

أوقعوني في تلك الشباك، وأصبحت دائم السفر معهم وبعد العديد من رحلات الاستكشاف ومغامرات الترحال تلك استقر بنا الحال في بلد عربي وامتلكنا بها مسكناً ومقراً لنا شقة في أرقى الاحياء، وأصبحنا نسافر إلى ذلك البلد في إجازة نهاية الأسبوع، حيث كانت تقلع بنا الطائرة يوم الأربعاء ظهراً وتهبط بنا مساء الجمعة في مطار المدينة التي نسكنها، وكان كل من حولي يتساءل عن تغيبي المستمر وسفري المتكرر وكنت أوهمهم بأنها جزء من مهام العمل تتطلب السفر، وكنت أحرص على إحضار بعض الخطابات المزورة وخصوصاً لزوجتي حتى أبعد عني الشبهات أو علامات الاستفهام أو حتى سوء الظن بالسفر المتكرر.

استمر هذا الحال سنوات عديدة إلى أن جاء يوم ونحن نتسامر في منزل احد الأصدقاء للعب الورق وتعاطي الحشيش الذي أصبح بشكل يومي..... لم يأت الشخص الذي أوكلنا إليه مهمة جلب «الحشيش» بحجة أنه لم يجد المروج (البياع) وكان من بين الموجودين في الجلسة شخص يتعاطى الهيروين منهمكاً في لف المسحوق في «قصدير» وبعد ان فرغ من عملية الإعداد لهذا السم أخذ يغري به جميع الجالسين بحجة التغيير وإمضاء تلك الليلة وانه سيكون أفضل من الحشيش!! في بداية الأمر رفضت ذلك بإصرار ولكني بعد ساعة من الزمن اندهشت من أصدقائي الذين تعاطوا معه الهيروين لما اعتراهم من انشراح

وسعادة واضحة فقررت أن أجربه فقط وأخذت منه نفساً قوياً أحسست بعدها بصوت خفي يردد في داخلي ويخترق خلجات صدري هاتفاً:

- أهلاً بك في نشوتك الحقيقية...

من هنا بدأت الرحلة الحقيقية للعناء... انفتحت أبواب أخرى للشقاء أصبحت مدمن هيروين... نعم مدمناً تلك المادة اللعينة وأسيراً لنشوتها الزائفه،ومن حينها كبرت وتعددت المشاكل وأصبحت تتوالى الواحدة بعد الأخرى وتتراكم المصائب مصيبة تعلوها مصيبة ومع مرور الايام واحتياجي الشديد إلى المال والحال الرثة التي تعتريني ويراها كل من يقع ناظراه على شخصي من هندام بالٍ.. جسم ناحل.. ذقن مخشوشن غير مرتب.. عرق يتصبب وشرود دائم.. اختلست من عملي الكثير من الأموال التي بعهدتي واقترضت من هنا وهناك بحجج واهية باطلة ومع تطور واستمرار هذا الحال انكشف أمري في عملي وتم إنهاء خدماتي وفصلي وتلكم كانت قاصمة الظهر وازداد السوء كيلاً.

كنت أعيش في معركة دائمة خلفت مستنقعاً من الدم الذي ينزف مني تارة وممن حولي تارة أخرى وكان سيفي في تلك المعركة هو الهيروين! غدوت نعشاً يعيش بين الأحياء... تحولت وحشاً كاسراً على من حولي... في أحد الأيام كنت بحاجة ماسة إلى المال من أجل شراء المخدر وبعد أن أنهكني التعب

من جراء البحث بدون جدوى.. تعبت من البحث... تعبت من الألم.... تعبت من التعب! ولم أجد أمام عيني سوى يد زوجتي التي كانت تتحلى ببعض الذهب وتحتفظ به من مهرها، لم تكن تتزين أو تتباهى به كما تفعل بنات جنسها، فهي لم تعد كأولئك النساء بل أصبحت محاربة ناعمة.. تحارب من أجل أن ينعم أولادها بالحياة.. محاربة لهمومها.. محاربة لقسوة الزمن... محاربة للهيروبين.. وإنما كانت ترتديه خوفاً من أن أسرقه أسوة بممتلكات المنزل التي ذهبت في مهب الريح واختفت وتوارت عن الانظار بعد أن وقع ناظري عليها! في تلك الأثناء انقضضت عليها ورفعت يديها وجئت بحبل غليظ وسمرتها إلى الحائط وربطها لآمن تحركاتها ومحاولة فرارها وهي تستغيث وتدمع الدم والألم معاً وأتيت بآلة حادة وكسرت ما بيدها من ذهب وأخذته ولم اكتفِ بذلك بل أشبعتها ضرباً وشتماً وإهانة لأنها لم تساعدني ولم تقف بجواري وتؤازرني في محنتي... غريب انا!

قررت وبمساعدة جادة ومتفانية من أحد أخوتي أن أتعالج قبل أن تسوء حالتي أكثر........ سافرت إلى إحدى الدول العربية ومكثت هناك أسبوعاً في مصحّ لعلاج الإدمان وأحسست بالشفاء وأن الحياة تدب وتغزو عروقي من جديد، ومن قبل ذلك بدأت تتسرب إلى تفكيري وعقلي الذي أُعطب منذ زمن! وقررت العودة سريعاً إلى بيتي وأسرتي ولكن ما إن وطئت قدماي المطار حتى

أحسست بتلك الآلام المعتادة التي تعتريني عند انقطاعي عن تلك المادة أو ما يسمى بالاعراض الانسحابية وظننت أن آلامي ومتاعبي كانت في استقبالي بكل حفاوة على ارض المطار، وأن فرحة العودة إلى انسانيتي تلاشت وذهبت بعيداً عند آخر درجة في سلم النزول من الطائرة... عند خروجي من صالة المطار توجهت مسرعاً إلى «المروج» وأخذت منه جرعة هيرويين بعدها ذهبت إلى منزل أسرتي وعدت إلى سابق عهدي.. انغمست في قاع الوحل مرة أخرى حتى قبض علي بتهمة التعاطي.. عشت حياة السجن أكون فيها علاقات متينة وصداقات وطيدة مع كل من هو في هذا الوحل، لم يكن يؤرقني سوى أوقات الزيارة عندما أرى أبي الطاعن في السن وأمي المريضة وزوجتي الحامل وهم يقفون في «الطابور» ذلك الصف المزدحم بالزوار ويتلقون المضايقات من كل جانب ويكفيهم من الألم تدنيس كرامتهم وانكسار كبريائهم التي انتثرت على امتداد تلك الصفوف، لمجرد دخولهم إلى هذا المكان.. خرجت من السجن مشمولاً بالعفو واستنشقت الهواء خارج أسوار السجن، طرقت باب المروج قبل أن أرى باب منزلنا وتعاطيت جرعة الهيروين في منزله ثم توجهت إلى المنزل وعندما رأتني زوجتي همست في أذني:

– أنت طالع من السجن والا جاي من عند أصحابك! ؟

لأنها شاهدت الملامح التي تعتريني من جراء التعاطي وقبل ذلك إحساسها الصادق ومعرفتها بشريك الزوجية!

بعد تلك الحقبة من الزمن..... انتقلت أنا وزوجتي وابنائي للعيش في منزل والدي الشعبي المتواضع، كنت وزوجتي وأبنائي ننام في غرفة واحدة لا يزيد طولها على ثلاثة أمتار ويبلغ عرضها حوالى ثلاثة أمتار أيضاً ولك أن تتخيل كيف ننام أنا وزوجتي وعشرة أبناء في مكان واحد بتلك الحجوم السابقة!!! لم يكن أبنائي يهنأون حتى في نومهم حيث اختطفت منهم راحتهم البريئة.. سرقت منهم أحلامهم الصغيرة...... وكأنهم يعيشون في معتقل.. نعم إنه أشبه بالمعتقل.. معتقل الإدمان.. لم يكن يستطيع أحد منهم أن يمد قدميه أثناء نومه إلا بصعوبة بالغة وإن مدّهما اصطدم بأحد أخوته أو بالحائط، وفي فترة الإجازة الصيفية يتناوبون على النوم ليس من أجل السهر كأقرانهم في ليالي الصيف السامرة... بل للحد من الارتطام أثناء النوم، وبعد فترة من الزمن ليست بالقصيرة قرر والدي وأخوتي أن يجدوا مسكناً مناسباً لتلك الأسرة المغلوب على أمرها التي يفترض أن أكون أنا من يدير شؤونها! وفعلاً تحقق المراد مرة أخرى وأصبحت أكثر حرية وانطلاقاً مما كنت عليه في منزل والدي.... كنت أنا الرابح الوحيد في ذلك المسكن، حيث أعلنت الحرمان على أسرتي من جميع مقومات الحياة الأساسية أو لتقل الحياة الإنسانية، أصبحوا

وكأنهم يعيشون في العصر الحجري.. لم أترك شيئاً ذا قيمة إلا بعته بأبخس الأثمان، حتى زوجتي إذا أرادت أن تملأ فراغ معدة أبنائها الصغار وتسكت تلك الأفواه الجائعة كانت « تطبخ» على الموقد ذي الفتيل... وهو ما بقي في المنزل (لأني لم أجد من يشتريه باعتباره تراثياً ولا يستخدمه أحد في هذا الزمن). تضع ذلك الموقد أمام باب المنزل لتستطيع رؤية ما بداخله في سواد الليل الحالك وظلمات الجور وعتمات القهر من خلال النور الذي تختلسه من أضواء الحي التي تنير الشارع وخصوصاً عندما تعد وجبة العشاء.

ازدادت حالتي سوءاً فوق سوء وتدرجت في اعتلاء قمم الضياع ومن مدمن إلى مروج وناشر لتلك السموم، اجتمع أفراد أسرتي وعُقد مجلس للعائلة وعندما باءت جميع محاولاتهم لعلاجي وإصلاحي بالفشل قرر إخوتي أن يغيروا كل شيء حولي حتى الهواء الذي أستنشقه.... جاؤوني في المنزل وأنا أتسامر مع معشوقتي... وأسبح في نشوتي....... أركبوني معهم في السيارة وأنا في وادٍ غير الذي هم فيه صحوت وإذا بي في مدينة تقع في الوسط الشمالي للبلاد معروفة بأنها من ينابيع العلم الذي لا ينضب ومن أشد المجتمعات حفاظاً على الدين والتقاليد وأودعوني أصدقاء لهم من طلبة العلم في تلك المدينة وكانوا بحق أخوة لم يخرجوا من رحم أمي.. فقد خففوا من

ألمي وأزاحو همي الذي سكن وجداني.. بعد ما يقارب اليومين زال وجع الانقطاع عن المخدر (الأعراض الانسحابية) وبعد أن استقرت حالتي وبُثت العافية في جنبات جسمي انخرطت معهم في طلب العلم الشرعي وأخذته عن أفضل علماء الأمة ومن أبرز مشايخها المعروفين في تلك الفترة.. عشت في ذلك النور الذي أضاء ظلمات فؤادي وأصبحت محافظاً على الصلوات في المسجد والسنن الرواتب ومداوماً على قراءة القرآن الكريم الذي كان رفيقي الدائم وأبحرت في الكتب والمجلدات أستزيد من كنوزها النفيسة، كنت من المحسوبين على طلبة العلم، واستمر ذلك الحال ما يقارب الستة أشهر وكان في تلك الفترة أخوتي يأتون لزيارتي ويتفقدون أحوالي ويطمئنون إلى صحتي، وفي أحد الأيام بعد الانتهاء من الدرس اليومي الذي ننهل من إحدى حلقاته العلم جاء أحد الإخوة وأخبرنا بأنه مسافر إلى مدينتي الساحلية ومسقط رأسي لقضاء بعض الأمور الخاصة وأنه على استعداد لتوفير جميع حوائج الإخوة التي يرغبون فيها ويحتاجون إليها من تلك المدينة وقبل أن ينهي عرض خدماته باغته بقولي:

- لا أرغب في حاجة من هناك ولا أتمنى مطلباً سوى أن أكون أنا هناك!!! لكي أجمع روحي بجسدي وسط أحضان أسرتي.

قررت أن أعود معه بعد أن سمح لي مضيفي بذلك وأخذ الموافقة من إخوتى وكان قرار السفر ذلك من أجل إطفاء الشوق الذي اشتعل وسكن داخلي إلى جميع أفراد أسرتي، كانت رحلة

السفر طويلة مررنا بمدن كثيرة وقرى تتداخل معها هجر عديدة... أعرف بعضها اسماً وأجهل الكثير منها اسماً وموقعاً، كنت قابعاً في المقعد الأمامي في السيارة ولكن فكري يسبقني يقبل يد والدي ويرسم ولعي في جبين والدتي ويحتضن إخوتي ويلملم جميع اسرتي داخل قلبي، كنت اسرح مع خيالي وخصوصاً مع أبنائي ذلك الحلم الذي أضعته في فترة من حياتي وأتشوق إلى رؤية أصغرهم ذلك الطفل الذي غمره بحب كل من عرفه لروحه الشيقة التي تمتزج بالطيب والمرح وتتوجها براءة الطفولة... آه آه آه كم أنا مشتاق إليك يا أديب.!. مشتاق إليكم جميعاً.

فرح أهلي.. فرحوا بعودة انسانيتي.. فرحوا برجوعي إلى الصواب.. سعدوا بعودة الحلم الضائع.. ولكن للأسف أفاقوا من ذلك الحلم أو الأصح أجبرتهم أن يفيقوا حيث لم يمض سوى عشرة أيام حتى رجعت إلى سابق عهدي وأخذت أنسلخ شيئاً فشيئاً مما اكتسبته في الأشهر الستة التي قضيتها في رحاب طلب العلم والمعرفة مع الرفقة الصالحة حيث أن ذلك لم يكن نابعاً من داخلي ولكنني أجبرت عليه!!!

عدت إلى الترويج ولكني أصبحت شخصاً معروفاً ووجهاً مألوفاً لدى أفراد مكافحة المخدرات، قررت أن اتبع أسلوباً جديداً في الترويج لكي أتفادى الوقوع في أيدي رجال مكافحة المخدرات وبعد التفكير الشيطاني المرير جعلت لي درعاً حصينة.. ووراء

يغطيني.. اخترت ابني أديب، لم يكن يعرف عن تلك السموم وكان ابن الست سنوات.. لطخت براءة الأطفال بالسموم.. قتلت الحلم الناشئ في مهده.. اقتحمت ألفة الصغار بوحشية... أديب هو المكان الآمن الذي أضع فيه الهيروين وأتنقل به بحرية حتى في مناطق التفتيش التي يزدحم فيها أفراد الأمن واستمررت على هذا الحال ما يقارب العامين... اصبح أديب من رواد الأماكن المشبوهة ومن مرتادي بؤر الخراب والفساد وأنا من يجره إلى تلك الأماكن في غياب قلب الأب وموت الإحساس بالأبوة تجاه أبنائه...... في أحد الأيام كنت على موعد مع أحد « المروجين» الذين امتهنوا بيع السموم تجارة لهم لأخذ حصتي من الهيروين وأبيعه بين الأموات وكان ذلك في ذروة الصيف وأشد ظهائرها قيظاً، حيث أوقدت الشمس لهيبها وغدت الوسيعة وكأنها بساط من الجمر وحرها يذبل الجلود ويفتت الصخور حتى أن ظلها يبحث عما يستظل به، أجلست أديب في المكان المتفق عليه مع التاجر وذهبت أنا أراقب من بعيد، كان أديب يستظل من حرارة الشمس القاسية بيديه الصغيرتين اللتين تبحثان عما يقيهما ذلك اللهيب المحرق، كان يتضور جوعاً لأنه لم يتناول شيئاً من الصباح ويئن شوقاً إلى جرعة ماء ليروي ظمأه وتوهج عطشه، لم أدعه يأخذ « قرشاً» واحداً من المبلغ الذي وضعته في يده لخوفي من خوض غمار نقاش عقيم مع التاجر بسبب نقص المال، حرمت ابني من أن

يأكل ليسد جوعه ويتقوى من أجل أن أشتري السموم التي أتجرعها لقتلي، وأثناء طول الانتظار كاد أديب يسقط من حرارة الشمس وأخذت علامات الاجهاد ترتسم على الجسم السقيم، جاء التاجر وأخذ المال من يد أديب ووضع كيس الهيروين في يده وجاءنى أديب مسرعاً فأمسكت بيده وأصبحت يدانا متشابكتين والهيروين بينهما في حرز الاب وابنه..... غذذنا الخطى نحو المنزل وفي هذه الأثناء اعترضت طريقنا فرقة من مكافحة المخدرات ونزل اثنان من السيارة... ومن هول وفزع الحدث ورهبته فككت يدي من يد أديب، وجهوا أسلحتهم باتجاهنا وعندها أفقت من سباتي العميق وأحسست حقاً بإبني وأخذت مشاعر الأبوة تتحرك وتستيقظ من جديد... أدركت أن أديب هو ابني، لم يمزق لحظات شرودي تلك إلا صوت جهوري يصرخ بأعلى نبراته:

- «حرام عليك.. اتق الله.. خاف الله.. حرام عليك مو علشانك علشان الولد الصغير هذا»، كان ذلك أحد رجال مكافحة المخدرات.

أخذوا يفتشوننا تفتيشاً دقيقاً أديب وأنا في ذهول عجيب... صاح بي أحد أولئك الأفراد:

- فين وديتها أحنا من الصباح مراقبينكم وشفنا كل شي.. فينها خرجها..

واجتهدوا يبحثون في كل مكان حولنا ولم يجدوها وبعدها

تركونا ومضوا، ظننت أن أديب ألقى بها من يده.... (لأنني وضعتها في يده عندما تمت مداهمتنا)..... أو أن أحد أفراد المكافحة الذي قام بتفتيش أديب وجدها وأراد أن يعفو عنا رأفة بأديب وإحساسه بالألم لما رآه من تعذيب للطفولة وإقحامها في هذا الفعل الخالي من أدنى مشاعر الإنسانية... في طريقي إلى المنزل لم أتفوه بكلمة واحدة لأديب ولم يدر في خلدي سوى كلمات ذلك الرجل من أفراد المكافحة التي يقع صداها في قلبي وتجلجل داخل صدري قبل أن تدوي في أذني:

- حرام عليك.. حرام عليك.. اتق الله.. خاف الله.. حرام عليك مو علشانك علشان الولد الصغير هذا.. حرام عليك.. حرام عليك.

وصلنا إلى المنزل وأنا في غاية الانكسار وقمة الهم، تعجبت زوجتي من دخولي الساكن الذي لم تعتده وعندما سألت أديب أجابها بعبارات تعتريها طفولة معذبة:

- مسكونا اليوم الحكومة وفتشونا.

وما هي إلا لحظات وأنا في حالتي تلك إذا بأديب من خلفي وأنا جالس ويطبطب على كتفي ويقول:

- خذ يا بويه.. من يأخذها مني؟.. أنا كنت ماسك عليها بيدي بقوة وما أحد شافها؟.. أنا ولدك.. خذ روق يا بويه.. خذ الدواء

حقك... ولا تزعل أنا ما خليتهم يأخذوها.. علشان لا تزعل ما أخذوها شوفها معي..... لا تزعل.

ومد بيده الكيس المملوء بالهيرويين الذي أخذنه من عند ذلك التاجر «المروج».

ازداد ألمي اتساعاً وحزني حرقةً وأسفاً على فلذة كبدي على التربية التي غرستها في ذلك الطفل.. وأخذت أتساءل:

- أهذا كلام وفعل يصدر من طفل لوالده؟ أهذا ما سأزرعه في أطفالي! فيا ترى ماذا سأحصد غداً؟

وبدون سابق إنذار اتخذت القرار وعقدت العزيمة الصادقة........ قلت لزوجتي بصوت تخنقه العبرة الدامعة:

- أنا رايح أتعالج.. خلاص تعبت.. أنا رايح المستشفى.. ولكن ما عندي فلوس المواصلات.

نهضت زوجتي واقفة أمامي ودموعها تسابق ضحكاتها من وقع سمع الخبر... وقالت وهي تمسح دموعها:

- بس.. حق المواصلات.. ابشر ذحين اجيبه.

ذهبت مسرعة إلى جارتها وطرقت عليها الباب طرقات قوية سمعتها وأنا في حجرتي وقالت لها:

- أبشرك ابو عيالي رايح يتعالج.. وراح يبطل من البلاوي إلى يشربها... بس أبغي حق مشواره للمستشفى... خلاص ابشرك زوجي بيروح المستشفى.

زاد ذلك الموقف من جراحي وانغرس باقي الرمح في قلبي.
ألهذا الحد لا تملك تلك الريالات وتذهب لاستجدائها من جارتها؟

ذهبت إلى مستشفى الأمل المتخصص في علاج الإدمان.. تحديت نفسي.. واجهت ألمي.. مسحت دموعي.. ظللت في المستشفى ما يقارب السنتين، أحسست بالألم... شعرت بالأوجاع في أيام عشتها في حياتي الخالية.. وأيامي الخاوية حيث كنت أعيش في هذه الدنيا كجسد خاو بلا روح...

وبعد خروجي من الأمل... أبصرت الأمل... عشت الأمل... ذقت طعم الحياة الكريمة... أدركت قيمة الإنسانية... أيقنت معنى أن تكون زوجاً... استشعرت كلمة أب...

والآن سخّرت نفسي في مساعدة كل من وقع في شرك تلك السموم وانغمس في وحلها وأفتح لهم قلبي قبل يدي حيث أصبحت أعمل مرشداً للتعافي في مستشفى الأمل....... أصبحت فخوراً بكل من حولي... وكل من حولي فخورون بي.

# وقفة...!!!

أدمن المسحوق الأبيض؛ كان نديمه الذي يجالسه ويأنس لوحدته، ولكن وحدته تلك أصبحت تنغص وينتابها الكدر من زوجته التي لا تتوانى ولا تكل في كل الأوقات من أطراف النهار وأناء الليل وهي تتوسل إليه وتدعوه أن يدع هذا السم القاتل وأن ينجو بنفسه، ولكن محاولتها فشلت في إخراجه منه في حين نجح في إدخالها عالمه بطرائق خبيثه وجعلها مدمنة هيروين وأصبحا في عالم مشترك... ذات ليلة وكانا في غمرة نشوتهما وفي أوج تعاطيهما إذ بطفلهما الذي لم يتجاوز السبعة أشهر تنتابه نوبة من البكاء وموجات من الصراخ التي كانت بمثابة الكابوس الذي يهدد تلك النشوة والطريق الذي سيخرجهما منها، ولكنهما توصلا إلى حل يدخل الجميع في عالم واحد وتعاونا على إعداد إبرة مخدرة وبكل وحشية وبعد أن نزعا رداء العطف من قلبيهما غرسا تلك الابرة في جسم الطفولة البريئة من اجل إسكاتها لكي لا تضيع فرصة الفوز بسراب النشوة التي يطمحان إليها.....

## لاعب المقابر!

سبعة وعشرون عاماً عمر الألـم.. سبعة وعشرون عاماً زمن العذاب... سبعة وعشرون عاماً حياة الضياع... سبعة وعشرون عاماً نزف للجراح... سبعة وعشرون عاماً مقدار موت الإنسانية... سبعة وعشرون عاماً حبيس الإدمان... نعم.. إنها سبعة وعشرون عاماً قضيتها في تعاطي المخدرات والمسكرات عشتها متنقلاً في دهاليزها المشعة بالظلام التي كانت مرتعاً خصباً لحياة قذرة... كنت الفتى المدلل في محيط أسرتي حيث أنني آخر العنقود لثلاثة من الأولاد واثنتين من البنات وكان الفرق العمري بيني وبين أخي الذي يكبرني مباشرة ما يقارب التسع سنوات... من هذا الباب سوف أدخل إلى معاناتي وأسرد قصتي، إن الفرق العمري الكبير بيني وبين أخوتي كان له دور في تشكيل مسار حياتي، عند بلوغي سن التاسعة كان والدي على قيد الحياة ولكن التربية والسلطة الفعلية كان زمامهما في يد أخي الاكبر احمد الذي كان

عمره وقتئذ ما يقارب العشرين عاماً، وبحكم كبر سن والدي لم يكن يقدم لي التوجيه والنصح والإرشاد او حتى العقاب وكل ما كان يقدمه الحماية من إخوتي إذا أراد أحد منهم التعدي علي لفظاً أو فعلاً حتى لو كنت قد ارتكبت خطأً يتفق الجميع فيه على استحقاقي العقاب.

تجاوز والدي السبعين من عمره ووالدتي تصغره بسنوات يسيرة، هي الأخرى نهجت نهج ابي كانت تقوم بالمهمة نفسها في غياب والدي وهي الحماية ولكنها قد تتنصل من مهمتها وتتحول إلى الشتم والعقاب البدني أحياناً حيث أنها كانت تضرب وبقسوة بالغة وتوبخني اذا ارتكبت ما يستحق العقاب ولكنها كانت لا تفرق في المقدار الذي أستحقه من عقاب جراء ما فعلت حيث كانت تضربني ضرباً مبرّحاً ولا تهدأ إلا عندما تسيل قطرات دمائي حينها تشعر أنها بالغت في ضربي وبعدها تتوقف وتجتهد في المحاولات الجادة لوقف هذا النزف بالكثير من الدلال وتقديم الهدايا والعطايا من أجل إرضائي... عشت طفولة ممزوجة بدلال مفرط ونقيضه في الوقت نفسه بالعقاب الجائر! ولكن يغلب الدلال المفرط من قبل جميع أفراد أسرتي إلا من أخي احمد الذي عهد اليه والدي في دور الأب وتدبر شأني وذلك تبعاً للظروف التي سقتها آنفاً.. ظهرت بوادر العدوانية منذ نعومة أظفاري على شخصيتي، وايضاً أحببت السيطرة والتملك، ونمّت أسرتي ذلك

بطرائق غير مباشرة.. كنت أتعدى بالضرب المبرّح على رفقاء صفي وأبناء الحي الذي نقطنه وأستغل من هم أضعف مني قوة وأصغر سناً وأقل حيلة لكي أظهر بطولتي على أجسادهم مما كون لي قاعدة عدوانية بين المحيطين وبمناصرة خفية من أسرتي، فعندما كان احد من أولياء أمور الأطفال الذين أقوم بالاعتداء عليهم يشكوني تكون حجتهم التي يصرخ بها في وجه الشاكي « بأنهم أطفال ولا يؤخذ على تصرفاتهم» مما منحني التصريح المبطن والضوء الأخضر الذي لا يطفأ بأن أفعل ما يجول في داخلي وبأن أشهر هذا التصريح وأنطلق من مفهومه مع من يوبخني أو ينتقدني، ولد ذلك داخلي الأعذار المسبقة لكل ما أقوم به تجاه الآخرين.. عندما بلغت الثالثة عشرة من عمري استهوتني هواية غريبة ذات طابع وحشي كنت استمتع عندما أمارسها وأحرص على مواظبتها.. تعطيني النشوة التي أبحث عنها في أعماقي، إنها هواية القتل...... نعم القتل... فقد كنت أبحث عن القططة وأقوم بقتلها وبعد ذلك أربطها بحبل غليظ وأجرها بدراجتي وأجول بها في ممرات الحارة وطرقاتها وهذه رسالة واضحة وصريحة لكل أقراني بأن هذا مصير كل من تسول له نفسه التفكير في التعدي عليّ أو النيل منّي، لا أقوم بقتل القططة وتصفيتها فحسب، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى التمثيل والتنكيل بها ولا أتوقف عن ممارسة تلك الهواية إلا بعد أن أقضي على القط العاشر يومياً والعاشر هنا ليس

مجازاً بل إني أقوم بعدها إلى أن أصل إلى نهاية مغامرتي عندما أنكل بالقط العاشر.. تطورت تلك النزعات فأصبحت المطوة (سكين صغيرحاد) رفيقة دربي ولم يتجاوز حينها عمري الرابعة عشرة فقد كنت أشهرها في وجه كل ما لا يروقني شكله أو كلامه أو حتى لمجرد أنه لا يروقني!!! ويتعدى الإشهار إلى الاستخدام أحياناً كثيرة وأمررها على أجساد الضحايا الذين أنتقيهم لأسطر بطولاتي على جلودهم البريئة... وفي تلك المرحلة من عمري انفتح باب الضياع ومهد طريق الشتات بسفر أخي أحمد إلى الدراسة في الخارج لإكمال دراساته العليا وبهذا حُلت القيود التي كانت تحد نوعاً ما من رغبتي الجامحة في الانطلاق نحو الدمار... كانت تتردد على مسامعي قواعد كثيرة من أهل الضياع وأصحاب الإجرام وبعض الأمثال التي تستخدم في هذه (الأوساط) المنحلة ولكن المقولة التي استوقفتني كثيراً وأعجبت بفلسفتها العميقة مقولة معناها (إن تعاطي الكحول لايصح إلا للأقوياء فقط) وبهذه العبارات المزيفة والمضللة أحببت خوض غمار هذه التجربة وفعلاً سنحت لي فرصة أن أتعاطى الكحول وأحسست أنني وجدت ضالتي فإنها تعزز من مكانتي في هذا الوحل وكان ذلك وهماً حقيقياً لم يتضح لي إلا فيما بعد!!! قطعت شوطاً طويلاً في التعاطي، ومن ثم تطورت مرحلة التعاطي فأصبحت أقوم «بالتصنيع» لأزيد من دخلي المادي ولكني في حقيقة الأمر وفي

أعماق نفسي كنت أرغب في أن أزيد وأعزز من مكانتي وأرتقي في هذا الوسط البائس ومع هذا التحول فإنه لابد من تغيير جميع المقومات والمهارات التي كانت في المرحلة السابقة التي كنت أعتبرها مرحلة بدائية، استبدلت الأداة التي كنت استخدمها في الاعتداء على الآخرين من السكين إلى حمل السلاح (المسدس) فقد كان رفيقي الوحيد دائماً حتى وأنا في سكرتي!!! وتطورت حتى هواياتي فقد تخليت عن قتل القططة واتجهت إلى التفنن في هذه الهواية وبدأت تنميتها حيث أصبحت أتعامل مع حيوانات أكبر فكنت أقوم بربط الحمير التي كانت منتشرة في الأحياء في تلك الحقبة الماضية من الزمن... لا أقتلها، بل كي أتلذذ باختراع الأساليب التعذيبية التي أمارسها ومن تلك الأساليب الوحشية كنت أقوم بإدخال عصا طويلة وغليظه في أذنيها وخطمها، وتعدى ذلك إلى الأماكن الحساسة لدى تلك الحيوانات التي كان من بينها الكلاب أيضاً... ولابد مع كل هذه المقومات التي أسعى جاهداً لصقلها وتنميتها في شخصي أن أعيش حياة الرجال.. حياة الأقوياء « كما يعتقد مدمنو المخدرات» وهذه الحياة لا يعزز من قيمتها إلا السجون خلف القضبان وفعلاً اكتملت رجولتي وقوتي ودخلت السجن وأنا في السابعة عشرة من عمري بتهمة تصنيع المسكرات وترويجها وأصابتني خيبة أمل عندما أودعت في البداية مكاناً غير الذي كنت أصبو إليه، لم أودع السجن العام بل أودعت

دار الملاحظة الاجتماعية لصغر سني، تكيفت مع هذا الوضع وسيطرت على من هم في تلك الدار وأصبحت الزعيم وبعد بلوغي السن القانونية تم تحويلي إلى السجن.. ذهلت فلقد رأيت أناساً لهم هيبة حقيقة ولهم سجل حافل بالإنجازات الإجرامية وأحسست بأنني سوف أفقد هيبتي وغطرستي التي كنت أتصنعها وأبحث عنها بين رفاقي والتي صنعتها قبل أن يزج بي وسط هذه العلامات الفارقة في الإجرام.. ولكنني أخذت بالتقرب شيئاً فشيئاً من تلك الزعامات «الفارغة والزائفة» داخل السجن إلى أن أصبح لي مكانة مرموقة حتى داخل السجن واستغللت وجودي في هذا المكان لمد جسور التواصل وعقد الصداقات التي سوف تزيد من شخصيتي عند الخروج إلى سجني الآخر... سجن الإدمان!

توفي والداي وأنا في العشرين من عمري تقريباً.. علمت أنهما توفيا كلّ في حينه... ولكنني لم أشعر وأحس بفقدهم وفراقهم إلا بعد تسعة عشر عاماً من وفاتهما.. حضرت مراسم العزاء... كان حضور جسد بلا روح فلقد كنت في غيابي الإنساني وضياعي العقلي.. كنت أتلقى التعازي بوفاتهما وأنا في نشوة إدماني.. أحسست وقتئذ بأن من معي يتلقى العزاء والمواساة في وفاة والديّ أما أنا فكنت أتلقى العزاء في نفسي لما كان ظاهرًا علي من آثار الإدمان! زادت مشاكلي مع إخوتي وأقاربي ومع من حولي... والأهم زادت مشاكلي حتى مع نفسي وكانت تختلف

في مضمونها حتى أنها تصل إلى حد التهديد بالقتل لهم وعلى مرأى من جميع أفراد الأسرة سواء أكانوا رجالاً أم نساءً وحتى أطفالاً ومن تلك المواقف الدامية وعلى سبيل المثال لا الحصر... في أحد الأيام كنت في حالة «سكر» حتى الثمالة، ذهبت إلى أخي سالم لطلب بعض المال ولكنه رفض أن يعطيني وفي أثناء المشادة بيننا اقتحمت حرمة بيت أخي ودخلت غرفة جلوسهم واختطفت أصغر أبنائه من حجر أمه اختلعته من الأمان وأودعته كهف الخوف، وضعته بين يدي وكان عمره سنتين تقريباً وأخرجت سكيني الحادة من جيبي وشددت الطفل بكل قسوة إلى صدري ووضعت تلك السكين على رقبة الطفل وهددت أخي إذا لم يعطني المال سوف أجعل السكينه تأخذ دورتها وأفصل تلك الرقبة عن بقية الجسد وسوف أذبحه كما تذبح الشاة.. أصاب الذهول أخي لأنه يرى انهيار الإنسانية بل إنه يشهد موتها.... أغمي على زوجته من كثرة الصراخ والتوسل، وبكاء إخوته كان يدوي في جميع الاتجاهات، لم آبه لذلك بل مررت تلك السكينة بطريقة خفيفة حتى جرحت رقبة الطفل وسال الدم من رقبته ومع سقوط قطرات الدم سقط أخي أيضاً مغشياً عليه بعدها صرخت بأعلى نبرات صوتي وكأنه زئير أسد انقضّ على فريسته أجبرت ابن أخي الأكبر بأن يتحرك إلى جيب أبيه ويخرج محفظة النقود ويعطيني ما بداخلها واختطفت النقود وذهبت مسرعاً بعد أن رميت بجسد ابن

أخي وتركته مضرجَاً بدمائه بين دموعه... لم أبال بكل المشاهد المحزنة والمآسي التي سببتها في بيت أخي ولم تتحرك مشاعري بل أحسست أنني بلا مشاعر لم أهتم بما آل إليه مصير هذه العائلة بل تركتهم جميعاً يواجهون طعناتي وظفرت بغنيمتي التي سلبتها من قوتهم وحقوقهم.

قطع أخي أحمد دراساته العليا وأمات طموحه وتوقف عن الاستمرار في حلمه.. والحقيقة أنا من فعل كل ذلك به، لأن تلك المشاكل تجاوزت كل الحدود فقرر إخوتي أن يضعوا حداً وحلاً لهذه الخروقات والتعديات وكان مخرجهم وحلهم اللذان أجمعوا عليهما وقتئذ أن أستقل بنفسي وأسكن بمفردي في أحد المنازل التي ورثها والدي، وبهذا فقد وجدوا طريقاً للخلاص من مشاكلي ووجدت الطريق الممهدة في مسيرة ضياعي.. ومن بعدها أصبح مسكني أشبه بمصنع يخرج كل ماهو قذر ورذيل للمجتمع.. تحول المسكن إلى مرتع للضالين ومتنفس للمفسدين.. حيث كان مشروعاً لصناعة الخمور.. ومستودعاً لكل أنواع المخدرات.. ومركزاً لبيع السموم... ووكراً يبث كل الشرور.

زادت وحشيتي.. انعدمت انسانيتي كنت كثير المشاجرة مع محيطي لكي أعزز من هيبتي ومكانتي كنت أضرب من يقع في يدي بكل فظاظة وبلا رحمة أوشفقة وفي نهاية كل جولة من الضرب لابد من أن أضع على ضحيتي وصمة مميزة أو علامة فارقة أو

عاهة مستديمة لكي يعاير بها وتكون رسالة تحذير قوية لمن يريد أن يفكر.. مجرد التفكير فقط أن يتعدى على شخصي.. ومن تلك العلامات الكسر في أحد الأطراف ولابد أن يكون الكسر مضاعفاً وأيضاً التشريط بالسكين في مناطق واضحة على الوجه ويكون غائراً في الجلد، وإذا لم يكن هناك علامات فارقة في الضحية كنت أكتفي بأن يكون الأسلوب في الضرب هو ما يميز فريستي ويتم تركي للضحية التي أقوم بضربها بعد ظهور علامات تشعرني بالانتصار ومنها أن يتغير جميع ما يرتديه إلى اللون الأحمر ويكون هو اللون السائد على مظهره أو يدخل في حالة إغماء ويفقد الوعي من شدة الضرب.

هذه حياتي.. شرب مسكرات.. تعاطي مخدرات.. ضرب أبرياء.. اغتصاب حرمات.. معذرةً.. فإن لم أتطرق إلى الاغتصاب وهذا حفاظاً على مشاعر من يقرأ هذه الأسطر لما كان فيها من انعدام للإنسانية وخدش صريح وواضح للحياء ولكنني أشير فقط... أنه في جلساتنا في الليالي الحمراء كان يوجد معنا الكثير من النساء المنحرفات اللواتي دنسن طهارتهن.. وأضعن أنوثتهن.. ونزعن شرفهن جراء دخولهن هذا العالم.. عالم الانحلال.. كنا نمارس الجنس معهن.. كلٌّ له أهداف من تلك الممارسة! ولكنني كنت أعشق ممارسة الجنس مع من تكون عفيفة وغافلة عنه وكنت أتصيدهن تحت تهديد السلاح والضرب، ذات يوم كنت أجول

مع أحد الأصدقاء في منتصف الليل وإذا بسيارة أجرة تسير أمامنا وفي المقعد الخلفي تقبع سيدة بكامل حجابها الشرعي، أشرت إلى صديقي بأن هذا هو صيد اليوم وأن الفريسة حاضرة لصيدها وأحكمت الخطة التي سوف ننال منها مرادنا وكانت تتمثل في كمين محكم لهذة السيارة ولمعرفتي بجميع الطرق والممرات في ذلك الحي وبطريقة معينة ودون أن يشعر سائق الأجرة جعلته يسلك طريقاً كان مغلقاً في نهايته ولابد لمن يرتاده أن يرجع أدراجه من حيث أتى.. استمررنا في السير خلفه إلى أن سلك هذا الطريق وكان ممراً ضيقاً جداً وجميع البيوت الملاصقة لهذا الممر من البيوت الشعبية القديمة وعند نهايته توقف سائق الأجرة لكي يرجع إلى الخلف من أجل الخروج من هذا الممر إذ دخل فيه خطأً كما يعتقد!!! لكننا وبسرعة أوقفنا سيارتنا خلفه وبذلك منعناه من الرجوع وبحركة سريعة اتجهت نحوها وأسرع صديقي إلى السائق ليتولى أمره وأشهرت مسدسي وغرزته في رقبة تلك السيدة مع وضع يدي الأخرى بقوة شديدة على فمها لأمنعها من الصراخ.. وفعلاً جرى ما كنا نصبو إليه واقتدت الأسيرة التي أصبحت أشبه بالغنيمة بعد الفوز في الحروب الطاحنة إلى مسكني أو فلتقل إلى مستنقع الرذيلة وعندما دخلنا غرفة الجلوس كان هناك أحد أصدقائي وكانت السيدة ملفقة بسوادها وهي منذ البداية لم تتوقف عن البكاء والتوسل، كان بكاؤها يذرف دموع العفة وصرخاتها

تطلق حروف الحشمة كانت شديدة الحرص على أن لايظهر جزء من جلدها الطاهر ولكن بكاءها وتوسلها لايجدان الصدى الحقيقي إلا عند من يحملون بين ثناياهم قلب إنسان.. أما أنا فكان الوحش الكاسر سيد أعماقي.. فوجئ صديقنا الذي كان في انتظارنا من هول ما رأى، أخبرني عندما انزوى معي في إحدى الغرف وقال لي:

- أنت ايش سويت.. مالقيت الا هذي البنت... هذي بنت جيرانا.. أنا فتشت شنطتها وشفت إثبات هويتها هذي أخت سامي صديقنا.. عيب عليك.

... اندهشت من ذلك وقلت له:

- معقول هذي!! أخت سامي صديقنا!! من جد طلعت ما افهم.. من جد عيب عليه... عيب عليه.. عيب... عيب...

ذكرت ذلك لأبين المقياس الأوحد في حياتي الذي يغلب على تصرفاتي هو العيب، ولكن ليس الذي يتعارف عليه جميع أفراد المجتمع والسائد بينهم وإنما العيب الذي هو عرف بين أوساط المدمنين، لم يكن للحلال والحرام مقاييس أو اعتبارات في تصرفاتي.. بعد أن انتهينا من الحديث، صديقي وأنا، توجهت إلى غرفة الجلوس وأمرت الفتاة بارتداء حجابها الذي خدشنا حياءه، وأجبرت صديقي بأن يوصلها إلى منزلها لنصلح العيب الذي اقترفته في حق صديقنا وسميرنا!!!.

هناك الكثير من الوقائع وأحداث الاغتصاب والإكراه ولم يكن ينجو منها إلا من ينالها منحة عيب.. عيب نحن من نحدد معالمه في ظل مفاهيم الضياع!

كان لدي طقوس غريبة كنت أهوى تعاطي المسكرات خصوصاً في المقابر المهجورة البعيدة عن الأحياء وألح على أصدقائي في التردد إليها.. كنت أقوم بنبش القبور القديمة وأبعثرها.. أرفع الجثث منها وكانت المتعة الحقيقية تكمن في أن أبحث عن جماجم الموتى وألعب بها كرة قدم مع أصدقائي ونحن في أشد حالات سكرتنا!!! كان هناك قاسم مشترك بيني وبين من ألعب بجماجمهم وقد قضوا نحبهم ونزلت بهم صرعة الموت... هو الفراق... هم فارقوا الحياة وأنا فارقت انسانيتي.

دخلت السجن مرات ومرات بجرائم متعددة... ووحشية واحده... كنت أحس بنوع من الغربة خارج السجن!! كانت تنتابني لحظات الحنين إلى السجن وقد دخلت مستشفيات الأمل أكثر من عشر مرات وكانت أهدافي خفية وراء هذا الدخول لم يكن في أجندتي العلاج من هذه السموم... لم يكن التعافي من المخدرات في حسباني، لم يسطر مصطلحا التعافي والعلاج في قاموسي.

وفي ليلة كلها غيوم تطغى عليها الهموم... ليلة ظلماً في نورها ولكنني أحسست بأنها ذات أنوار مشعة لأنها كانت التحول في مسار حياتي، وجدت نفسي في الشارع.. وحتى الشارع لو لديه

مقدرة لطردني منه..... أصبت بجلطة قوية في قدمي اليمنى نتيجة جرعة زائدة من مادة الهيروين المخدر... كنت برفقة من أدخلتهم حياتي عبر بوابة الصداقة التي تشرع لمن يشاركني في نشوتي في هذا العالم، أغمي عليّ وشكوا بأنه حل أصدق المواعيد وفارقت الحياة ولخوفهم من الملاحقة القانونية قذفوا بي إلى قارعة الطريق، أخذت أصيح من الألم وأصرخ في من كنت أظنهم أصدقائي..

- أنا الزعيم.. أنا الزعيم..

لم تحرك صعقاتي فيهم ساكناً، ولم يجب عن آهات صرخاتي تلك إلا صدى حروفي التي أطلقتها.. أيقنت أن هؤلاء هم أصحاب أنفسهم فقط.. هم أصدقاء مزاجهم الواهم.. هم رفقاء إدمانهم.. وأنني في وسط أشبه بالغابة الملأى بالوحوش المفترسة ينهش بعضها بعضاً ولكن الفرق في الغابة أن مصدر هذة الوحشية لأجل أن تأكل لتعيش أما هؤلاء فإن وحشيتهم من أجل الحصول على المخدر ليموتوا!!!... أخذت أفكر إلى أين أذهب؟ والى أيّ مكان أقصد؟ وأنا أصارع حيرتي من جهة وألمي من جهة أخرى.. لم أرَ أمامي إلا مستشفى الأمل.. أخذت أسير تارة وأزحف تارة إلى أن وصلت قرب مدخل المستشفى ولم أستطع أن أكمل زحفي فدخلت في حالة إغماء.. صحوت بعد تسعة أيام «عرفت ذلك لاحقاً» صحوت وأنا على سرير ابيض انتابتني مشاعر غريبة.. اعترتني أحاسيس عجيبة وأنا على سريري

في مستشفى الأمل.. أحسست أنني على سرير التعافي.. وأنني في بداية حياة جديدة من هذا المكان.. مستشفى الأمل الذي أضاء شمعة حياتي التي أطفأتها المخدرات والذي له بعد الله سبحانه وتعالى الفضل في عودتي إلى طريق الحق والصواب وإظهار إنسانيتي التي أخفى معالمها الإدمان.. جاءتني رسائل وجدانية وهتافات داخلية وأصوات عالية أكملت برنامج علاجي الذي استمر أكثر من سنة.. لماذا مكثت كل هذه المدة في المستشفى؟ تساءلت مراراً، لكنني أيقنت بأنها إرادة الخالق لكي أرجع إلى الطريق الصحيح والسلوك القويم... لم أعرف في حياتي فيما سبق عن رمضان إلا أنه يقلب يوميات الناس رأساً على عقب.. ينامون صباحاً ويسهرون مساءً وتختلف أوقات وجباتهم إضافة إلى امتياز تلك الوجبات ببعض المأكولات والمشروبات، هذا ما كنت أعرفه عن ذلك الشهر الفضيل.. صمت رمضان أول مرة في حياتي وكان عمري وقتئذ تسعاً وثلاثين سنة.. كان الأذان يدوي كل يوم في أذني خلال سني حياتي السابقة والآن أسمع الأذان بقلبي واستشعره بوجداني.. لم أصلّ في حياتي السابقة برغم تعاقب الفصول علي ثماني وثلاثين سنة خلت فريضة واحدة حافظت على صلاتي منذ تلك السنة من صيامي وأحرص على السنن أيضاً.. تغير سلوكي.. استقام خلقي.. بكيت على فراق ولديّ.. ندمت أشد الندم على ما فرطت في حياتي.. تبت توبة

نصوحاً.. اتجهت إلى إكمال تعليمي النظامي.. أخذت أعكف على تلاوة القرآن الكريم وحفظه.. أبحرت في تعلم وتشرب شتى العلوم الشرعية.. سلكت طريق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.. تزوجت زوجة صالحة ومربية أجيال.. أصبحت زوجاً عطوفاً.. وأباً حنوناً.. والأهم أنني أصبحت إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان جميلة.. وخصال حميدة.. وصفات نبيلة.. نعم إنساناً بحق.

## وقفة...!!!

إن الأبواب مشرعة ومتعددة للدخول إلى عالم المخدرات وإذا لم يتدارك المدمن أو المحيطون به السعي لعلاجه وانتشاله من هذا الوحل فإن الخروج منه له أبوابه المحدودة والمعلومة، هي أبواب ثلاثة في نهاية هذه الطريق المحفوفة بالمخاطر والمعنونة بالمهالك إما الباب الموصل إلى السجن وإما الباب المؤدي إلى الجنون وإما باب الهلاك الذي يقود إلى القبر بتفاصيل وفاة لا يتمناها إنسان لأشد خصومه عداوة ...

## أنثى ولكن...!

«عيشي حياتك... جربي طعم السعادة... ابسطي نفسك......» بهذه العبارات التي مازال صداها يدوي في أذني.. كان يهمس في أول يوم لزواجنا.. هي تلك عبارات الغزل التي كان يمطرها على مسامعي وهو ينعم بأحضان عشيقة أخرى.. لقد كان برفقة كأسه ويلح لأكون ثالثهم! في بداية الأمر كنت أقاوم تلك الإغراءات.. حتى وأنا أقطن منزل أمي حينما كان يتعاون ضيوفها على حثي لتعاطي الشراب لكنني كنت ارفض نزولاً عند تحذيرات أمي حيث كانت تقول لي:

- لا تشربي الحين.. هذا للكبار ولمن تكبري وتتزوجي اشربي بكيفك عند زوجك.

ياااااه....... لقد تحققت الشروط الواجب توافرها لكي أفك القيود وأنضم إلى الركب وأستطعم ذلك «الكيف» المزعوم بمفهوم والدتي والنصائح التي كانت تسديها إلى ابنتها في عالم

الضياع.. لقد كبرت وها أنا تزوجت.. غزل زوجي وقتها اتسم بالحنان بدفء عارم في المشاعر وأحاسيس أخرى غريبة لم أشعر بها إلا حين يكون في نشوة سكرته! كسرت ذلك الطوق وأخذت أول رشفة أحسست بطعم المرارة يغزو كل مسامي... وأخذت أشرب الكأس تلو الأخرى بعد أن اتبعت الوسائل التي تخرجني من الأمور التي قد تعتريني في أول كأس.... وكان (لا أدري بأي وصف أنعته، أكاد أجزم بأنه لايوجد مصطلح يطلق على هذا المخلوق لفظاعة ماقام به) ذلك الزوج هو من زج بي في أعماق ذلك الوحل!!

لم تكن تلك المأساة الوحيدة في حياتي فلقد توفي والدي ولم أتجاوز الثلاث سنوات جراء مرض عضال تمكن منه وأخذ منه كل مأخذ، كنت وحيدة أمي وأبي، كنت البكر وآخر العنقود معاً.. ومن حينها وأنا أشعر بالوحدة المميتة فلقد تخلى عني جميع أقارب أبي لأنه تزوج أمي بغير مباركتهم ورفضهم الشديد لذلك الزواج، كانت أمي تعيش وحدة من نوع آخر، توفي شقيقها الوحيد في حادث سير منذ زمن، لم يبقَ لها من الأهل والخلان سوى شقيقتها الكبرى، هي الأخرى قطعت ومزقت كل حبال الوصل والود بينهما، بسبب أفعال وسوء تصرفات وسمعة والدتي غير الحميدة جراء ماتقوم به! لم تجعلني والدتي ألتحق بقطار التعليم وأنضم إلى من هم على مقاعد الدراسة، لعدم حصولي على

أوراقي الثبوتية لأن والدي لم يسجلني في سجل أحواله المدني.. ووالدتي لم تقم بهذا الدور وحجتها التي تطلقها أنها مشغولة دائماً وليست على استعداد بأن تضيع وقتها الثمين في السعي بين أروقة الدوائر الحكومية.. حيث أنها كانت مهتمة بأمور أخرى!!!

وعيت على هذه المعمورة بصحبة ضباب كثيف ينسجه دخان سجائر الحشيش.. لم أكن أسمع سوى قرع الكؤوس.. لم أكن أشم سوى روائح الخمور تعج من بين جنبات المكان.. كنت أظن أن المنزل مجرد صالة كبيرة وإضاءة خافتة وشموع تزين الأركان وموسيقى صاخبة في أول المساء لتنخفض حدتها إلى أن تصبح ذات طابع «كلاسيكي» هادئ عندما يخلع الليل ثيابه ويعلن الصباح إشراقه، وأنه أيضاً استقبال لضيوف وتعالي الضحكات والخوض في أحاديث لايفهم منها إلا حروفها وقد تختلط الأحرف لتموت تلك الكلمات.... كنت أبدأ يومي بإيقاظ الضيوف الذين يغلبهم النوم في أركان تلك الصالة أو عند عتبة بابها والغريب أنني كنت أجدهم حتى في أماكن أخرى لايليق المقام لذكرها!!!! تعايشت على هذه الحال حتى بلغت الثامنة من عمري، ولكن خالتي لم ترضَ الهوان والذل لطفلة تحمل البراءة بين أضلاعها لا ذنب لها سوى أن والدتها ألقت بها في هذا العالم السحيق، عكفت خالتي على جبر الكسر الذي بينهما، وعادت إلى والدتي وطلبت منها بأن أذهب معها إلى منزلها وأسكن مع بناتها

لكي تبعدني عن هذا المكان الموبوء بالفساد.. فرحت أمي بطلب خالتي، وافقت دون تردد لتتفرغ لحياتها وعالمها الخاص..... زوجها ونديمهما الكأس اللعينة.. ذهبت مع خالتي وعشت في كنفها وكانت ترعاني كواحدة من بناتها.. كان لها ست بنات في مراحل عمرية مختلفة فلقد مات زوجها منذ زمن.. ترعرعت وسط هذه الأسرة التي كان يحتضنها الفقر ويضمها المرض، منهن ابنتان وقعتا تحت وطأة المرض فإحداهما معاقة ومصابة بشلل كامل، وأنا أشاطر خالتي في خدمتها بكل حب وطوعاً مني والأخرى تعاني فشلاً كلوياً منذ ان كانت في السادسة من عمرها إضافة إلى والدة زوجها التي تقطن معهم، والتي ليس لها معيل سوى خالتي، وهي امرأة طاعنة في السن لم تعد تتفوه إلا بالشهادتين والحديث عن أيامها الخوالي وتلك الذكريات التي عاشتها عندما كانت حية الروح والجسد، والتي أخذ الزمان من عقلها كما أخذ من عافيتها، ناهيك عن الديون التي أرهقت كاهل خالتي وإيجار المنزل الذي يفتقر إلى كل المقومات التي يجب توافرها في أسوأ المنازل.... كان غرفتين لا تتضح ملامحهما ولا أبعاد مقاساتهما ولا تدخلهما الشمس إلا حياءً عند غروبها وقد يختنق حتى الهواء بداخلها وأضفى على تلك المعاناة وازداد بلل الطين الانقطاع المعتاد للماء والكهرباء لفترات قد تتجاوز أسبوعاً كاملاً، حتى أصبح جميع أفراد الأسرة يعلم معنى الحياة في الزمن

الماضي الذي تتحدث عنه جدتهم باستمرار وتتذكر تلك الأيام الخوالي! أما الوجبات فإننا اعتدنا وجبة واحدة في اليوم، هذا إن وجدت! ولم تستطع خالتي إدخالي إلى المدرسة ولا داعي لذكر السبب وراء ذلك لأنه فهم من سرد ماسبق ولكنها لم تتوان جاهدة في إقناع والدتي لكي تستخرج أوراقي الثبوتية ولكن لا إجابة لمن تنادي.. كانت بنات خالتي يعاملنني كواحدة منهن وكأخت سابعة لم تلدها أمهن الحانية، كانت أيامي التي تنعمت فيها بين جدران هذه الأسرة مسروقة من دهري الذي اكتسى بالحزن الدائم، لم أشعر بالغربة في ذلك الوطن الذي تتربع على عرشه خالتي المغلوبة على أمرها من متاعب هذه الحياة الطاحنة.

ولكن حل ذلك اليوم بظلاله الحزينة، ذلك اليوم الذي جاءت فيه والدتي؛ يوماً كان خارجاً عن المألوف... ساعاته تعد بالآلاف... يوماً تخطى كل حواجز الظروف... وأبدت لخالتي رغبتها في أن ترجعني إلى حضنها لكن خالتي رفضت حتى مجرد النقاش في ذلك الشأن وأشهرت والدتي قذيفة مدوية وتوعدت بأنها ستلجأ إلى المحاكم من أجل إرجاع فلذة كبدها!!! وافقت خالتي على مضض اختصاراً للمسافات التي سوف تقطعها في هذا الطريق الشاق المعلوم نهايته وخوفها من فتح باب آخر لمتاعب لا تطيقها ولا تقوى على إغلاقه... أرجعتني إلى والدتي وكنت وقتئذ بنت السادسة عشرة، وبعد شهرين من فترة انتقالي إلى منزل

والدتي... استيقظت من نومي في ذلك الصباح.. ذهلت لما رأيته، هل هذا هو منزلنا؟! أحسست بأنني لم أصح من نومي وأن ما تبصره عيناي هو ما يراه النائم!!! لقد كان غير العادة لم يكن زاخراً بالضيوف النائمين المتناثرين في دهاليز البيت وحجراته، لم أشم رائحة الخمور التي اعتدتها، ولم أبصر الأعقاب التي تعانق منفضة السجائر، وغابت الاضاءات الخافتة والشموع الثائرة.. لم أرَ تلك الكؤوس الفارغة والأطباق المتناثرة التي كانت تشكل هاجساً وقلقاً يعتريني عند استيقاظي من تنظيفها، والترتيب والنظافة كانا باديان في أرجائه والروائح العطرة تملأ الأركان، وأشعة الشمس تغزو جميع الزوايا، لم أعلم بأن الشمس تصل إليها وأبصرت نافذتين لم أرهما من قبل في تلك الصالة... وفي خضم حيرتي فتح باب المنزل على عجل وكان الداخلان والدتي وزوجها محملينَ بالكثير من العلب الصغيرة والأكياس البلاستيكية، دخلا مسرعَين وقالت لي أمي بلهجة لم أعتدها:

- جهزي نفسك.. جاينا ضيوف اليوم..

أصابتني الدهشة وعلامات الحيرة تتناثر أمامي، وما الغريب في ذلك فكل يوم بيتنا مرتع للضيوف!!!

وبعد أن قامت ورتبت وأعدت جميع ما أحضرته جاءتني وزوجها وقالت:

- اسمعي يا بنتي « عجباً.. قالت بنتي!» الحين مو انتى

تتمنى تروحي المدرسة زي بنات خالتك.. وأنا سعيت لك في هذا الموضوع.. علشان كذا جاي خالد صاحب عمك ومعه رجال بيسألك من وراء الباب انتى موافقة على الزواج من خالد لا ترددي قولي له نعم.

(قاطعتها مستغربة):

- هاااااا...... ايش دخل الزواج بالمدرسة؟

ردت ونبرة صوتها التي لم أعتد سماعها مبطنة بحب لم أشعر به من قبل:

- يا حبيبتي انتى لسى صغيره وبعدين أشرح لك.. كله علشان المدرسة.. انتي وافقي وأنا أفهمك على كل شي يعني حيتزوجك وبعدين يدخلك المدرسة مع بناته!

فقلت محدثةً نفسي هذه فرصة سانحه للفرار بسلام من هذه المعارك اليومية.

عندما حان المساء جاء خالد الذي لم أشاهده من قبل ومعه مأذون الأنكحه واثنان من الضيوف الحريصين على زيارتنا... تم الانتهاء من المسلسل بالسيناريو المعد مسبقاً.. ذهب الجميع وبقي خالد فقط جاءت أمي إلى غرفتي وأمرتني أن أحزم حقيبة ملابسي وأن أذهب مع خالد إلى بيته.. ظننت انني سوف أمكث مع بناته لكي أستطيع الذهاب معهن إلى المدرسة! كما نسجت أمي وافتعلت هذا المخطط لكي أقع في هذا القبر!

هربت من جحيم أمي المدمنة التي كانت تغار مني على زوجها كنت أشعر بذلك فلقد وهبني سبحانه وتعالى جمالاً فتاناً ومواصفات يتمناها ويسعى للفوز بها كل ذكر ويطمع فيها كل رجل ليحظى بي كأنثى تكون زوجاً له.. نعم كانت تغار من ابنتها التي أنجبتها! هذا هو جزء يسير من تعامل أمي حتى أصبحت تراودني الشكوك أنها استقبلتني في رحمها حال سكرتها ورغماً عنها! وفي أوقات كثيرة أجزم بأني لم أمكث تسعة أشهر في أحشائها.. تخلصت من تحرشات زوجها السكير الذي لايكاد يصحو من سكرته حتى يتأهب للعودة إليها... والذي أصبح من مهام حياته اليومية وفي أجندته كيف يغتال طفولتي التي أوشكت معالمها على الاختفاء في هذا العالم القذر الذي أعيشه..

ودعت نيرانهم إلى جحيم زوجي.. زوجي الذي جعلني أشعر أن أكون وحيدة خير من أن أعيش مع شخص نصب نفسه جلاداً على صبا جسمي.. وحارساً أميناً على مشاعري من السعادة!!!

تزوجت وأنا بنت السادسة عشرة رجلاً... رجلاً! « إنه لا يستحقها».. أقصد من ذكر كان على صداقة وطيدة مع زوج أمي وكان عمره يفوق الأربعين عاماً! وهو من سعى واجتهد لكي يستخرج أوراقي الثبوتية.. ما بدا أنه المهر المتفق عليه إضافة إلى الشيكات التي كان يحتفظ بها المسجلة على والدتي وزوجها.... كان جسدي ومشاعري وانسانيتي وأحلامي من يسدد تلك الديون

ويبطل تلك الشيكات التي كانت تحمل أرقاماً بمبالغ ضخمة!!! هو من حرك مشاعر والدتي لكي تأتي باسم الأمومة وتنتزعني من ذلك العش الهادئ ومن أحضان خالتي الحنونة... إضافة إلى شقة مفروشة بالإيجار الشهري، عشت تلك الأيام روحاً ميتة في جسد حي!!! وتخيل كيف يعيش أسد كاسر مع يمامة وديعة لا يرغب في القضاء عليها ليريحها وإنما يظل ينهش جسدها ويتلذذ بتعذيبها واليمامة مغلوب على أمرها.. حتى أنها لا تعرف ماهو أمرها!!

أصبحت أشرب معه المسكر كل يوم في ذلك القفص الذي اتخذه لملذاته وأودعت ضمنه! بدأ يجبرني على تعاطي الحشيش، كنت مجبرة على ذلك بحكم صغر سني ولعدم وجود من ألجأ إليه لكي ينتشلني من هذا القفص.. الذي اعتقدت أنه سيكون قفص الحرية الذي طالما حلمت به.. عشت في جحيم هذا القفص وما إن أنهيت السنة الثالثة من زواجنا حتى قبض عليه وأُدخل السجان السجن بتهمة التهريب وكان شريكه في تلك القضية زوج أمي وحكم على كلٍّ منهما بسبع سنوات وزج بهما خلف القضبان.

خرجت من قفص الملذات وعدت إلى قفص الجحيم عند والدتي، وبعد مضي شهر من دخول زوجي السجن قرر أن يهدي إلي حريتي التي أبحث عنها وهو الآن محروم منها فطلقني.. عدت إلى تلك الحياة القذرة ولكن الوضع هنا تغير كثيراً أصبحت أعلم بكل ما يدور من حولي وأعرف السر وراء أولئك الذين كانوا

يقصدون منزل والدتي من كنت أظنهم ضيوفاً.. نعم هم ضيوف يبحثون عن الكيف والمتعة.. عشت الليالي المليئة بالفساد.. ونهارها المظلم بالمعاصي بين أحضان والدتي!!

نشأت علاقة وطيدة بيني وبين أحد السامرين الدائمين، وكان شاباً يكبرني بسنتين اتفقنا على الزواج، وجدت نفسي في حيرة خانقة... ولكني قررت فاخترت... وللأسف لسوء الاختيــار ومرارة الاختبار.... حيث أنني اخترت طريقاً ليس معروفاً ومسلكاً غير مألوف وقررت أن أحاول. ومع طول التفكير وصعوبة التقرير..

أبديت استعدادي وموافقتي على الزواج به وباركت والدتي هذا الـزواج.. كنت أحلم بالاستقرار وبالأمان وبالشاب ذي الحصان الأبيض الذي ينتشلني من هذا الوحل الأسود.. ولكنني كنت موقنة بأن هذا من المستحيلات التي لايمكن أن تتحقق إلا بمعجزة خارقة.. وكل المؤشرات تدل على ذلك، أنا.. والدتي... حياتي..

تم زواجنا بصورة مبسطة لأنه كان يخجل من أهله لإعلان زفافه على فتاة أو مطلقة أو امرأة أو.... أو...... مثلي...

لم تختلف حياتي كثيراً عن عذابها السابق فلقد مات ذلك الحب الذي نشأ بيننا منذ أول أسبوع له بعد زواجنا ودفن بين عتبات أول خلاف نشب بيننا وكان خلافاً متوقع الحدوث بين زوجين يظللهما سقف الحياة الزوجية.. واستمرت الحياة

تتأرجح بين عذاب وألم، وبعد ما يقارب السنة من يوم زفافنا أنجبت منه طفلين توأمين ولداً وبنتاً كنت أحس بأنني مازلت على قيد الحياة عندما أكون معهما.. كنت أذهب إلى والدتي عندما يحتدم الخلاف بيننا ولكن والدتي هربت مني إلى السجن! فقد تم القبض عليها بتهمة لا تختلف عن تهمة زوجها وحكم عليها بالسجن خمس سنوات...

كانت تمر الليلة تلو الأخرى بغيومها الكثيفة لتسدل وحشتها المميتة على كل الأرجاء، تتغلغل إلى أعماقي وأستشعرها بكل فؤادي وعيناي ملازمتا السمر وكأنهما خلقتا للسهر! ... الدموع هي البلسم الذي يغسل كل الألم ويزيل الهمَّ من تلك القلوب المتعبة ولكن عندما تنضب دموعك في قمة اليأس ولا تجد حتى الدمعة لتخفف تلك الأوجاع القاتلة التي تلازم الأنفاس... وتجلجل مع الآهات وتتصارع بعضها مع بعض للخروج إلى العالم الفسيح لتريح ما بداخل ذلك الفؤاد المتعب.. ولكنها تختنق وتموت في قمة بوحها... كل ليلة تمثل ولادة لأحزاني... أقبع في غرفتي وفي إضاءات ظلماتها في كل أركانها أتأمل شرفتي التي تجاورني، أنظر إليها نظرة متأملة أرى أوجاعي تصطف الواحد تلو الآخر يدفع أولها آخرها وأنا متوسدة ذراع الخوف... أتجرع عذاب الأم... ظلم الزوج... قساوة القريب... وإجحاف الصديق، كان ليلي كنهار الأعمى... ظلاماً دامساً!

قصة حياتي محطات متنوعة في أحداثها ومختلفة في مضامينها ولكنها تشترك في أوجاعها وتتحد في مرارتها..

أخبر أهله بزواجنا بعد سنتين فأصبحنا نزورهم بين الحين والآخر ولكنهم لم يكونوا سعداء بذهابي إليهم ويظهرون البغض الشديد ولاسيما والدته التي كانت تنوى تزويجه بنت شقيقتها ولكنني وعلى حسب قولها سرقته منهم وخدعته بزواجي، حاولت التقرب منهم ولكنهم بقدر اقترابي يسعون جادين لإبعاد المسافة وتوسيع الفجوة، اجتهدت في أن أقلع عن تلك السموم التي أتعاطاها رغبة في أن أكون إنسانة... يكفي بحق أن تكون إنساناً! ولكن زوجي هو من يقف عائقاً في الطريق نحو إنسانيتي.. عشت في حيرة لا أعرف أي دور أقوم به.. الزوجة.. الأم.. المدمنة..؟!

اكتمل الاجتماع في السجن فلقد قبض أيضاً على زوجي بتهمة الاختلاس وجرائم أخرى وحكم عليه بما يقارب العشر سنوات.. أحسست بأن السجن يهرب إليه كل من حولي!

عشت أنا وطفلي سنتين تقريباً وكان من يقوم على رعايتنا وامدادنا بالمال من أجل أن نعيش في هذه الحياة هو أخو زوجي الذي كان يعطف على أبناء أخيه.. ولكنه لم يهرب هذه المرة إلى السجن بل ذهب إلى الدار الآخرة.. فلقد كان من بين الضحايا الذين استشهدوا في غرق إحدى السفن التجارية التي كان يعمل على متنها.. ولم يمضِ زمن يسير حتى جاءت ثلاث من أخواته

البنات وانتزعن قلبي من بين أضلاعي.. وأخذن أطفالي بحجة أنهم أحق بهم مني.. صرخت دمعاً.. بكيت ألماً.. تنهدت حزناً على فراقهم.... أطفالي هم النبض لقلبــي والهواء في مجرى أنفاسي. هم الحياة.. وبغيابهم أصبحت أعيش حياة الأموات!!!

صارعت الأفكار في كل ليلة بين جنبات حزني.. إلى أين؟ كان هذا السؤال الذي ما انفك يقرع أعماقي ويسامر وحدتي، احترت في أن أجد إجابة عن هذا اللغز وصدى يحنو على هذا البوح.. خالتي هي ملاذي الوحيد ولكن همومها لم تدع مكاناً يتسع لهمي وانغماسي في هذا الوحل! من ذلك الحين لم تضع الأفكار والهواجس المورقة أوزارها من على رأسي... لا يمكنني مواجهتها ولكنني قررت... وأن أسعى جاهدة لأستعيد إنسانيتي التي تعاون الجميع على سلبها وتحطيمها... حقاً لم أعد أحتمل بعد أن فقدت أغلى ما لديّ، لم يبق شيء لأخسره.. قررت أن أتوجه إلى المستشفى الذي كان يجاور منزلي لعلّي أجد الخطوة الأولى في طريقي نحو الأمل الذي أصبو إليه، التقيت إحدى الطبيبات من بنات هذا البلد كنت مترددة في بداية الأمر لخوفي من احتقارها لي وأن تذر بعباراتها الملح على الجرح النازف... نظرت إلى عينيها فأحسست بأنها إشارة اطمئنان وابتسامتها الحانية تغازل القلب المتعب بأصدق العبارات التي كانت بوابة عبور إلى شاطئ فؤادي... وكلماتها التي ترسلها عبر أثير الإنسانية كانت بلسماً...

وبحق هي بلسم ودواء لم يصنعا بعد... كم كانت أقرب إليّ من شقيقة نسب! لم أشعر بنفسي إلا وأنا أجهش بالبكاء وأسرد لها حكايتي من آهاتها إلى دمعها.. تفهمت مشكلتي وكانت تستشعر حقاً ما أعانيه، أخذتني بعد أن قامت بالتنسيق مع أحد العاملين في مستشفى لعلاج الإدمان.. توجهنا إلى هناك.. وجدت القلوب قبل الأبواب مشرعة.. انخرطت في العلاج ساعدني كل أعضاء الفريق العلاجي المشرف على حالتي.. واصلت السهر بالنهار تغلبت على الألم بسلاح الصبر تغلبت على اليأس بشمعة الأمل أزحت ظلام حياتي بنور الإيمان الذي غرسته من جديد بين روحي المقهورة في متاهات المعاصي، في هذا الحضن تلقيت العلوم الدينية التي كنت أجهلها لم أكن أعرف حتى كيف تؤدى الصلاة المفروضة التي كتبها علينا ربنا عز وجل والكثير من تعاليم ديني الحنيف.

والآن إنني إنسانة أفخر بانتصاري على نفسي، بدأت دراستي حيث التحقت بمدارس محو الأمية حاملة سلاح العزيمة القوية والرغبة الصادقة في الوصول إلى مقاعد الدراسة الجامعية. واجتهدت أيضاً في أن أعيد إلى حياتي معناها الحقيقي بضم أبنائي إلى أحضاني فهم الأزهار في روضة حزني الذين لم أرهم منذ أربع سنوات حين اقتلعهم من حديقة قلبي إخوة زوجي.. كلي يقين بأن اليوم أجمل... وغداً أفضل.

# وقفة...!!!

في ساعتين فقط: ضرب والدته ضرباً مبرحاً ناهيك عما كان يقذف به على مسامعها من شتائم وإهانات.. وسطر بعدها أقبح المناظر على جسد زوجته... وأصاب ابنه بشلل نصفي... وسكب الماء الحارق على جسم شقيقته... وأحرق جميع محتويات مسكنه... وأتلف الأوراق الثبوتية الخاصة بجميع أفراد عائلته...

أتدري لماذا؟!

الإجابة في هذا العالم السحيق بسيطة ومتوقعة إنه مدمن تعاطي جرعات زائدة ولم يعِ ما قام به، وغيره الكثير من الأحداث الممكنة في هذا العالم حيث يقومون بأفعال بشعة لا يصدقها عقل بشري ولا يطيقها قلب إنسان سوي.

## فرحة الموت

عندما تتسم حياتك بالنبذ ويرسم ملامحها الإهمال ويميزها الحرمان ويسطر صفحاتها الألم ويعنون كتابها بالضياع، كتاب اذا فتحته لابد أن تستوفيه واذا نشرته لا بد أن تطويه.... حينما تفتح أولى صفحات هذا الكتاب تجد أنه منذ نعومة أظفاري عشت حياة ملأي بمشاكل متعددة ومشاحنات متواصلة بين جدران المنزل الذي ولدت فيه، كان الخصم الأول والدي ذا القلب الصنديد الذي من تصرفاته تساورني الشكوك في أغلب الأوقات بأنه لا يحمل قلباً مثل بقية البشر، وأيقنت من خلال ما يعاملنا به أنه لا يحمل معنى الرحمة في قاموس إنسانيته، كان الخصم المقابل أو بالأحرى الطرف الآخر( لأن كلمة خصم لا تليق بذلك المنازع المهزوم دوماً حتى قبل بداية المعركة لأن المعارك اليومية ذات موازين مختلة) والدتي المخلوق الوديع ذات الحنان الجارف التي تقف بكل خوف أمام هذا الإنسان الذي اتخذها ساحة

لإظهار بطولاته. كان والدي مصدر المشاكل عوضاً أن يكون مبعثاً للأمان والاستقرار، لقد اعتاد أن يقصر في واجباته مع أمي ومعنا والأدهى من ذلك حتى مع والدته « جدتي»... نعم مع أمه التي أجحف في حقها وتناسى قلبها الحاني وعطاءها المنهمر ولمسات يديها الحانية؟؟ ليصفعها بيده القاسية!! وآثار ضرباته الموجعة ظاهرة جلية على جسدها الطاهر ناهيك عما يستحيل وصفه من العبارات التي يصبها عليها والتي تحمل في جنباتها أقبح الشتائم وأفظعها... كان واسع الرزق إلا أن بخله وشحه كان أوسع من ذلك بكثير على أهل بيته بصورة مبالغ فيها... ومن أبسطها كان يجبرني على ارتداء البالي من ثياب أخوتي الكبار وأحذيتهم وجميع مستلزماتي الأخرى، كان ذلك مصدر قوة لكل من حولي ومن أراد النيل مني وسهل أيضاً على أقراني أن يتناوبوا بالسخرية من شخصي، أصبحت أنعت وأرمى بالكثير من الألقاب التي يقع صداها ألماً في قلبي قبل أن تصل إلى مسامعي لأن ملامحي وتفاصيل جسمي تتغير كما أرى في عيونهم عند ارتداء أثواب أخوتي وكأنني أشبه (بدمية ناطقة) كتلك التي تستخدم في مسرح العرائس، والحذاء الذي أنتعله تضيع قدماي في داخله فلا غرابة أن يكثر تعثري وسقوطي، لأجدني أمام ذلك أرفض الذهاب إلى المدرسة التي كنت أحبها وأشتاق إليها عند مغادرتي منها كل يوم، ولكنني في حقيقة الأمر كنت أرفض الذهاب إلى

المنصة التي أتوج فيها لتلقي سهام التحقير والعبارات المهينة... كنت أخجل أنني ابن عبدالرحمن!!! الذي يمتلك الأموال الطائله والعقارات الشاهقة، أخجل من هيئة ملابسي... وجيب ثوبي الخالي من النقود.. ونظراتي اليائسة تراقب الفتيان في المدرسة فأجد في أيديهم الحلوى والمشروبات وفي المقابل يملأ الفراغ مابين يدي، وأتوارى خجلاً عندما يفكر أحدهم في إعطائي بعضها لأني كنت أستشعر نظرات الشفقة تمطرني من عيونهم وكأنها رماح ثاقبة تتوالى على اختراق جسدي، أرفض بشدة وأشعر بأنها الأجر الذي أتقاضاه في مقابل سكوتي عن إهانتهم!! وفي خلجاتي يدور ألف سؤال،لماذا يحظى الآخرون ببعض المال وأحرم أنا؟ لماذا ألبس أثوابهم وأحذيتهم وحقائبهم...؟ ولماذا..؟؟ ولماذا..؟؟ ومع ذلك كنت طفلاً متفوقاً ونجيباً في استذكاري ومجدّاً في تحصيلي.

توفي والدي وأنا في الصف الثالث من تعليمي الابتدائي وتولى زمام الأمر في الأسرة أخي الأكبر الذي يشعرنا دائماً بأن والدي لم يمت، فلقد كان هو السلف والخلف في جميع التصرفات والسلوكيات التي كان يعاملنا بها والدي، أصبحت أتغيب عن المدرسة وأحرض من هم في صفي على ذلك.. بدأت التدخين في الصف الخامس الابتدائي.. كان من في عالمي تزين أيديهم تلك الألعاب الخفيفة عندما كنا نجتمع في الحي، كان بعضهم

يحمل (الطقطيقة) «الطقطيقة من الألعاب الشعبية القديمة وهي عبارة عن كرتين صغيرتين تستقران في طرفي حبل غليظ لا يتجاوز طوله 15سم، ويمسك اللاعب بمنتصف الحبل ويرفعه إلى الأعلى ومن ثم تصطدم الكرتان معاً مما يحدث صوتاً مدوياً» والآخر يجمع في يديه (البرجون) «لعبة تراثية قديمة كان يلعبها الاطفال، عبارة عن جسم صلب يصنع من بلورات زجاجية مستديرة الشكل أشبه بحبات الخرز الكبيرة، وذات ألوان متعددة ومختلفة لتتميز بعضها من الآخر، وتعتمد في مجملها على تصويب كل لاعب بالبرجون الخاص به على برجون اللاعب المنافس، فإن استطاع التصويب عليها كانت من نصيبه، وقد تختلف في قوانين لعبها عند البعض» وأنا أشوه يدي ومن قبلها طفولتي بتلك السيجارة!!! التي كان الدخان المتصاعد منها يعلن التحدي لكل القيود التي كانت تنسج حول حريتي.

في بداية دراستي للمرحلة المتوسطة حان ذلك اليوم الذي كانت ساعاته هي الدافع والمحرك الرئيس في التحول الذي غير مجرى حياتي وقلب موازين أيامي... بدأت من هنا خطوات العناء وشرعت أبواب الضياع على مصراعيها، ذهبنا ذات يوم برحلة مدرسية في أحد المتنزهات التي كانت تشتهر بها مدينتنا. في أثناء الإعداد لوجبة الإفطار عند وصولنا إلى المتنزه شاهدت سائق الباص يبدل ملابسه فسقط من جيبه كيس صغير كان شكله

يدعو إلى الريبة لغرابته والطريقة التي ربط فيها مما أشعل في داخلي الفضول العارم للتعرف إلى ما في داخله والتنقيب عن محتواه بدا لي بأن له قيمة كبيرة من شدة الحرص الذي أحيط به... وفي غفلة من حولي، سارعت إلى خطفه ثم انزويت خلف تل صغير وبعيداً عن الأنظار كان الشوق يدفعني لأعرف ما بداخله ولا أدري ماهو السبب والدافع لهذا الشوق، فتحته لأجد بعض الأقراص الدوائية وأخذت أتساءل مع نفسي لماذا لم تغلف مثل تلك الحبوب التي توخذ من الصيدلية؟ ولماذا كل هذا الحرص من العم حسن (السائق) بوضعها بهذه الطريقة؟! قررت الاحتفاظ بها في جيبي ربما رغبت في الانتقام منه لأنه دائم السخرية مني ومن لباسي ومن والدي لأنه كان يسكن معنا في الحي نفسه، في فترة القيلولة بعد أن تناولنا وجبة الغداء مضى معظمنا لأخذ قسط من الراحة، وخلال تجوالي بين زملائي من أجل البحث عن مكان مناسب لأضع فيه تعبي وأدفن نومي سمعت الاستاذ علي مدرس الرياضيات يتحدث مع أحد الأساتذة في تلك الرحلة ويخبره بأنه يعاني ألماً شديداً في رأسه وبأن الصداع يكاد يفتك به، سارعت إلى إعطاء مدرس الرياضيات الذي أحبه وأكن له كل احترام واحداً من تلك الأقراص وأخبرته بأن هذا دواء فعال للصداع (علماً بأنني أجهل مفعول هذا الدواء) رغبة مني في مساعدته، ولم أنسَ أن أضع واحداً في فمي، وعندما أمسك مدرس الرياضيات تلك

الحبة أخذ يتفحصها وهو ينظر نحوي بدهشة واستغراب ورفض تناولها مني بل حاول بكل جهده أن يجعلني أتقيأ ما ابتلعته أمامه ولم يفلح... باغتني بسؤال:

- من أين جئت بها؟

لأقول له ببراءة الأطفال وبدون أدنى تردد:

- سقطت من جيب العم حسن وحتماً سأعيدها إليه!

استشاط غضباً وظهرت عليه علامات الانفعال وطلب مني عدم إخبار أحد بالموضوع وضرورة التكتم عليه وأخذ مني ذلك الكيس بقوة، عدت إلى المنزل وأنا أشعر بشيء غريب ونشاط غير طبيعي وأحببت ما شعرت به!! أحببت النشاط الذي كنت أتوهمه ولذة النيل من العم حسن، في اليوم التالي فوجئت بالعم حسن يستدعيني أثناء فسحة اليوم الدراسي.... ليقول لي:

أيش الأخبار يارجل؟! (ردد كلمة «رجل» بخليط من الجد والهزل) ماذا فعلت بالحبوب..... ولماذا أخبرت الأستاذ علي؟

لم أتمكن من الرد باغتني بأسئلته... منذ متى وأنت تستخدمها؟ كم حبة تستخدم في اليوم؟ ومن أين تأتي بها؟ ولم ينتظر الرد بل ربت كتفي وقال:

- مرني على البيت اليوم الساعة سبعة لا تتأخر.... مفهوم يا رجل...

عدت إلى المنزل وأنا أحمل في جعبتي الكثير من علامات

التعجب من خلال حديث العم حسن وأسلوبه المختلف الذي لم آلفه، لم أخرج من دائرة العجب التي كنت أدور في فلكها إلى أن حان الموعد المحدد... ذهبت إلى منزله لأفاجأ به يستقبلني بحفاوة وكأنني أحد أصدقائه الحميمين والمقربين إلى قلبه وذهلت من المقدمة الطويلة التي أطال فيها وهو يمتدحني فيها ويثني على صفاتي وأفعالي وأدخلني في خيالات وأجواء غائبة شعرت فيها بأنني احد الأبطال الذين لا يشق لهم غبار، وبأنني أحد أولئك الذين كان يحكي لنا معلم التاريخ عن أمجادهم في حصص التاريخ واختتم تلك الديباجة بقوله:

- ستكون يدي اليمنى.... والسنارة التي أصطاد بها!

وكأن لسان حاله يقول أريدك أن تكون سلاحاً فتاكاً في يدي لتسقط الضحايا في هذا الوحل ضحية تلو الأخرى.. ثم أخذ في الشرح المطول وإسداء المعلومات والتفاصيل عن كل حبة وعن كيفية إخفائها وعن ثمنها وعن كل شيء.... لأخرج من عنده محملاً بمائتي (200) حبة طالباً مني بيعها وترك لي الخيار في كيفية البيع والتصرف بها وحدد لي يومين (ليشوف شطارتي) حسب قوله ويختبر مدى قدرتي على القيام بهذه المهمة... لم أفاجأ أو تنتابني نزعات خوف عندما علمت من شرحه أنها حبوب مخدرة! لأنها امحت من خلال سرد المدح والإجزال في تمجيد بطولاتي التي لم أخضها بعد! من خلال الحديث الذي أسهب

فيه العم حسن، لم أتوان أو أتقاعس، ذهبت فوراً إلى مجموعة من الشباب ذوي السمعة السيئة في الحي الذي يجاورنا وجميع الآباء يحذرون ويتوعدون أبناءهم من مجالستهم أو مخالطتهم وكنت جازماً أن هذا الصيت السيئ الذي حظي به هؤلاء الشباب جراء أمور كثيرة من ضمنها تعاطيهم تلك الحبوب، وبدون أن أعرض بضاعتي أو أبدأ بتسويقها... وجدتهم يتحدثون عن صعوبة توفير الحبوب فلم أتأخر بل انتهزت تلك الحيرة التي تنتابهم من جراء عدم وجود مصدر لتلك السموم وإذا بي أصيح بهم وأعلن استطاعتي توفير ما يطلبون وبعد المشاورات والأحاديث الجانبية وتأكيدي لهم لمصداقيتي في ذلك وبعد الجدل الذي دار بيننا اتفقنا على وضع المطلوب في مكان تم الاتفاق عليه واشترطت عليهم أن أستلم ثمنه الآن!!!

تمت الصفقة الأولى بنجاح وكان نصيبي مبلغاً من المال لم أكن أحلم به في ذلك الوقت حتى إنني لم أستطع عدّه أو معرفة قدره وأحسست بعدها أنني رفيق مخلص للضياع، وتوالت الصفقات وازدادت نقودي واستطعت شراء أول ثوب يخصني في حياتي وأول حذاء وأول..... وأول......، بدأت أحب نفسي وأحب مظهري خصوصاً وأن الله منحني وسامة غير عادية فكنت دوماً محط أنظار الآخرين، وكانت وسامتي جواز مرور فتح أبواباً كثيرة تعرفت على مروجين في مناطق أخرى وعلى نطاق أوسع،

وتوسعت تجارتي القاتلة، سافرت لأول مرة خارج الوطن جربت أول كأس كحول في حياتي وأحببتها... أحببت الشعور الذي منحتني إياه، بدأت أتاجر بالشراب (الكحول) حتى أصبحت معروفاً على مستوى المدمنين، وكنت أدخن الحشيش بين الوقت والآخر........ وقد يتبادر إلى ذهن من يقرأ هذه الأسطر سؤال غابت إجابته وحقائقه في سرد التفاصيل السابقة بين تلك الأحداث سواء أكان هذا الغياب سهواً أم متعمداً والحقيقة أنني أخفيته متعمداً، السؤال أين أسرتي في خضم ما حدث؟ إن الحديث عن ذلك يطول شرحه بحكم المواقف والأوضاع التي تتغير وتطرأ بين الحين والآخر وقد يستغرب البعض عندما أقول أنا ابن المرحوم عبدالرحمن وشقيق سالم (الأخ الأكبر في العائلة الذي تولى زمام الأمور) لأنه أصبح الوكيل بعد وفاة والدي في كل شيء ماله وصفاته!! الذي يمتلك الأموال الطائلة والعقارات التي يتعبها العدّ والذي يحمل السمعة والصيت الحسن والأخلاق الفاضلة والمبادئ الشريفة، يعلم بأن شقيقه مروج مخدرات ولكنه كان يتغاضى ويتجاهل ذلك بحجة واهية وكان يردد دائماً:

- المهم أن يكون عندي وتحت نظري ويريحني من مصاريفه!

أما بقية أسرتي فقد كانوا في غمرة السرور ونشوة الفرح بما أغدق عليهم من أموال ويكفي أنني أقوم بتلبية جميع متطلباتهم

التي عجز الأب الثري الشحيح ومن بعده خلفه الأخ الأكبر عن تلبيتها لهم.

ذات يوم وقعت في كمين لرجال مكافحة المخدرات وفي حوزتي ستة كيلوات من الحشيش المخدر ورفضت الاعتراف عن صاحب الشحنة لسبب بسيط لأنه الشخصية العامة المعروفة!!! لم أضعف رغم التهديدات بعقوبة صارمة تجاه ما قمت به.... وقبلت أن أسجن بدافع النخوة والشهامة التي كانت لها مفاهيم أخرى ومضامين مختلفة بين أوساط المدمنين، حكمت بسبع سنوات.... لم أخف السجن ولم أفكر سوى في كيفية تعويض الخسارة.

كان لموقفي هذا أثر كبير عند صاحب الشحنة لمسته عند مغادرتي السجن، وجدته يفتح ذراعيه الملطختين بقتل الأبرياء حيث أرسل مراسيله لنبدأ العمل معاً وأن نشترك في إسقاط الضحايا الأحياء وجرّ الموتى إلى ساحة القبور! توالى سقوطي، دخلت السجن سبع مرات بجرائم مختلفة تعددت في دناءتها وتنوعت في وحشيتها ولكنها اتفقت في عدم إنسانيتها وفي كل مرة كنت أخرج بنصف المدة يشفع لي حفظي للقرآن الكريم والوساطات المتعددة، وفي آخر مرة من دخولي إلى الحرية، تعمدت أن أزج بكلمة دخول هنا لأن الأصل أصبح عندي هو أن تكون حياتي خلف القضبان!!!، عدت إلى منزل أسرتي لأفاجأ بأخي الأكبر

وبالتعاون مع أخوتي وأبناء عمومتي يقيدونني بسلاسل غليظة في حجرة مهجورة ظللت فيها حوالى أربعة شهور، لا أفعل شيئاً سوى أن حقدي وكرهي يزداد داخلها ويكبر كل يوم، تلك الحجرة المجهولة المعالم التي لايميزها سوى الظلام الدامس في أكثر الأوقات، حتى أصبح اليوم بنهاره وليله سواء، وقد ينطفئ الظلام ويفر هارباً حينما يضيء ذلك المصباح الخافت عندما يحضر أحدهم وجبة أسكت بها جوعي أو من أجل تفقد أحوال السجين من قبل سجانه! هذه الحجرة تنام بداخلها الأحلام، وتستيقظ بين أركانها الأوجاع وتصاحبها الآهات، واختصاراً في سرد تفاصيل هذه الحجرة ما عليك سوى أن تغلق عينيك... تماماً... أرأيت!!! هذا هو حال الحجرة التي كنت أقبع بداخلها، ناهيك عن الأصوات المفزعة التي تدوي في جنباتها والتي رافقتني طوال مدة مصادقتي هذه الحجرة. ولا أدري كيف استطعت إقناع سجاني برغبتي في العلاج.... وفك قيدي للذهاب إلى أحد المصحات المتخصصة في علاج الإدمان، لم يكن هدفي العلاج بل هدفي الأول التخلص من أشقائي، ومن الغرفة الكئيبة التي أطبقت جدرانها على وحدتي.

مكثت في المستشفى ثمانية أشهر أثرت خلالها العديد من المشاكل الأخلاقية التي تورطت فيها، تم إخراجي من المستشفى بعدما استنفدت كل الإنذارات والفرص السانحة لعلاجي، رجعت إلى أسرتي مرة أخرى كما ذهبت فلم يتغير سوى بعض ملامحي

الخارجية حيث مررت بأحد الأصدقاء الذين أحسبهم الآن أعداء وتعاطيت في منزله ثم أكملت سيري إلى المنزل، وبسبب عودتي السريعة إلى المخدر عاد شقيقي ليقيدني من جديد وليعطي أوامره لإخواني بأن يستخدموا جميع الوسائل الممكنة وإذا اضطرهم الأمر فلا مانع من استخدام السلاح (المسدس) لإحباط أي محاولة لهروبي، كنت أتحين الفرص التي أحتضن بها حريتي وأنطلق معها، هربت بعد أسبوعين من حبسي، هربت مع قيودي... هربت مع حقدي على أهلي، لجأت إلى معلمي ومن أخذ بيدي وأنا مغيب العقل إلى هذا العالم القذر... العم حسن!

عند طرقي باب منزله فوجئت بزوجته تخرج مهرولة.. أوقفتها وسألتها:

- ما الأمر؟

فقالت:

- المصيبة الي عندنا (تقصد زوجها العم حسن) شكله بيموت جالس يصيح في غرفته بـاروح اشوف احد عياله يجي يرمه في المستشفى.

طمأنتها بأنني سوف أتولى الأمر توجهنا مسرعين إلى غرفته فوجدته ملقى على الأرض وإبرة المخدر مغروزة في يده والدم يسيل من فمه وعيناه شاخصتان، وبينما كنت أقترب منه أحسست بأنه فارق الحياة إثر تلك الجرعة من المخدر لأنني معتاد على تلك الحالات..

كلما دنوت منه أكثر كنت أرى نهايتي المحتومة... شاهدت جسمي المنهك، هو من غرس تلك الابرة أو تلك السكين القاتلة في جسده.. تلك الابرة التي تستخدم لشفاء قد تكون هي أداة للموت!!! بعد أن أيقنت أنه فارق الحياة.. أخذت دمعتي تتساقط حزناً ليس على العم حسن... وإنما على ما آل إليه حالي ونهايتي التي أصبحت تهرول نحوي... أجبرت زوجة العم حسن بأن تخرج من الغرفة لكي لا تشاهد مدامعي ويتغلغل إليها حزني ويحدث لها مكروه أو ردة فعل غير متوقعة من هول الصدمة، بعد خروجها إلى أبنائها لحقت بها إلى صالة الجلوس التي كانت تجمعها بأبنائها، أخذت أبحث عن بعض الكلمات وأفتش عن العبارات وأستجمع منها التي ربما تكون ذات وقع غير أليم على قلوبهم ولكنني أقوم باستبدال غيرها وأزيح ما استبدلته بأخرى!!! بدأت أتمتم وأضعت كل الحروف وفقدت القدرة على ترتيب الكلمات التي من خلالها أستطيع أن أوصل خبر موت زوجها وأن يكون وقع ذلك الخبر سلاماً عليها وأن أسعى بألّا تصاب بأذى أو صدمة نفسية هي وأبناؤها الذين ينتظرون أن يعلموا ما حل بوالدهم، وكأن الكلمات تتزاحم في التسابق لبوحها! كنت أجر خطواتي المثقلة، وعندما هممت بتعزيتها متوجساً من ردة فعلها إذا بها تباغتني:

- بشرني فرحني مات هذا المصيبه؟

هززت رأسي ومدامعي تتناثر ميمنةً وتختار بعضها الميسرة

وتفضل بعضها الحفر على وجنتي والمكوث عليها إلى حين قدوم أخرى لتزيحها وقلت لها:

- نعم... نعم.... لقد مات العم حسن...

وإذا بها تطلق الزغاريد والهتافات وأحسست أنها أصيبت بحالة هستيرية من هول الصدمة ولكنها أخذت تهنئ كل واحد من أبنائها الواحد تلو الآخر وتخبرهم بوفاة والدهم وأخذ الجميع يحمد الله ويهنيء بعضهم بعضاً والابتسامات تعلو محياهم.. شعرت وكأنني أخبرتهم بقدومه من سفر بعيد وغربة طويلة وفي زحمة انشغالهم بفرحة الموت.. أمروا أخاهم الأصغر بأن يأخذه ويذهب به إلى المقبرة وأن يغسل ويدفن ويصلى عليه في أسرع وقت « هذا إن صلى عليه أحد لعلمهم بسمعته السيئة بين جميع أفراد الحي» غير أولئك الذين يقومون بتجهيز ودفن الموتى بالإضافة إلى هذا الابن الذي أمر بتنفيذ المهمة، ويرتاحون من ذلك الأب والزوج الذي لم يجلب لهم سوى المتاعب وضيق الحياة وتعاسة العيش.... أصابت الأسرة نوبات سعادة غامرة وكأن بموت والدهم انهزمت جنود الحزن من عساكر الفرح في ساحة منزلهم!!! ودون سابق إنذار سمعت نفسي تصرخ وتلح برغبه شديدة من أعماقي بدخول مستشفى لعلاج الإدمان لما رأته في هذا المشهد الذي ارتسمت أحداثة أمامي ويخيل أنه أنا البطل لذلك المشهد من جراء تلقي أسرتي خبر وفاتي وأنه سيكون حال

من عرفني عندما يسمعون بنبأ وفاتي مثل مشاهد الفرح التي تلقاها كل من سمع بخبر وفاة العم حسن، وفعلاً غيرت وجهتي التي كنت أقصدها لأجدني أنهي إجراءات دخولي المستشفى، بقيت فيه مدة خمسة أشهر، ثم أخرجت إثر مشكلة أخلاقية اتهمت بها، وإذا بي في حيرة من أمري إلى أين أتجه؟ وإلى أين أمضي؟ وما هو الباب الذي أطرقه؟ وجدت جميع الأبواب مقفلة ولم أجد سوى باب الرحمن الرحيم الكريم لعباده.

رفضت الذهاب إلى أي وجهة كانت، اتخذت قراري أن أبقى في المستشفى ولو على الرصيف وللأسف لم أجد رصيفاً يؤويني لأنام عليه!! أحضرت عدة كراتين وأعددت بيتاً يقيني حرارة الشمس لأستطيع أن أنام في فيئه، كنت أستلقي على الأرض وألتحف السماء في مكان منزو عن المارة قريب من المستشفى، بقيت هناك اثنين وثمانين يوماً عددتها بدقائقها قبل ساعاتها، كنت أحسب فيها الثواني قبل الأيام وأتجرع فيها الألم قبل الجوع وأصارع فيها النفس قبل شياطين الأنس، تحديت نفسي ومن حولي الذي شك كثيراً في تعافي وابتعادي عن المخدرات، وصبرت... ساعدني خيرون من حولي، كنت محط استغراب الجميع على ثباتي وصبري.... تركت خلفي كل الأموال المشبوهة ومركزاً كنت أتباهى به في وسطي الاجتماعي الذي كنت أعيش فيه، تركت اهتمام الآخرين بي وانتظارهم قدومي لساعات طويلة للحصول

على مبتغاهم من المواد المخدرة، تركت كل شيء.... لأبحث عن نفسي وما زلت أبحث عنها وأجمع شتاتها، ولكن ما لا يغادر هذه النفس أنني مازلت أحمل حقداً كبيراً على والدي وشقيقي الأكبر اللذين تعاونا على كسرا إنسانيتي.... وطفولتي.... وكرامتي....! وكنت أتساءل: هل سيزول ما كان غائراً في الذات؟ وأيضاً ما زلت أحمل حقداً كبيراً على العم حسن الذي قرأ حاجتي الشديدة لأن أهنأ بحياة كغيري من أقراني وتلبي احتياجاتي الأساسية، وأيضاً من ضمن ما قرأ حاجتي إلى الحب والتميز والحصول على الاهتمام وحفاوة الآخرين... وما زلت أكرهه...

ولكنني مع كل ذلك الكره الذي في داخلي فقد تولد حب عظيم لنفسي عندما أراها الآن وأنا إنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى والأهم أنني ابتعدت عن تعاطي تلك السموم منذ أكثر من سنة، وشمرت عن ساق المجد وذراع العلى وبدأت خطواتي في إكمال تعليمي ورغبتي الملحة بأن أبلغ أعلى مناصب التعليم كما بلغتها في التعاطي والترويج... أسطر هذه الأحرف وأنا على مقاعد الجامعة وقد أنهيت السنة الأولى بتفوق في أحد تخصصات العلوم الإنسانية، وأشق طريقي نحو الحياة... الحياة الكريمة الهانئة التي يحلم بها كل انسان واعٍ في كوكبنا.

# وقفة...!!!

شاب لا يعرف من معاني الأم... إلا اسمها وقد يتندر إن أطلق يوماً كلمة (أمي)، كان مرجعاً ونبراساً للعقوق بوالدته التي كانت من تقوم على شؤون حياته بأكملها بعد وفاة والده... أدمن المخدرات منذ مراهقته وأصبح علامة في هذا الميدان المبهمة حدوده... جاء في ذلك اليوم من أجل طلب النقود من والدته لشراء المخدر لعدم قدرته على الخروج من أجل البحث عنه جراء ما يعتريه من آثار الأعراض الانسحابية، رفعت تلك الأم المسكينة يديها إلى السماء تدعو له بالتوبة والفكاك من هذا المصير وأجلسته في حجرها وأخذت تحنو عليه وتصبره وأخذ لفترة ينظر إلى فمها وهي تحدثه بقلبها وتخرج ما تكنه من حب دفين من بين شفتيها ولاحظت اهتمامه وإنصاته إلى كلامها، فقد كان ينظر بتمعن إلى فمها وهي تتحدث أخذت تكثر الدعاء له وهي في فرحة عارمة لإحساسها بأن نظراته تلك توحي بأنه يحس بوقع تلك الكلمات

وفجأة انقض هذا الشاب ومد يديه إلى فم والدته وأخذ يحاول أن يخرج تركيبة طقم الأسنان التي طليت بماء الذهب واقتلعها وعندما حاولت الأم مقاومته أخذ ينهال عليها ضرباً حتى فارقت تلك الحانية الحياة ولفظت أنفاسها الأخيرة وذهب هذا المدمن العاق لبيع الغنيمة التي حازها من معركته مع أمة لشراء المخدر!!!

## نهاية النهاية!

كنت أتضور جوعاً ليأكل من حولي حتى إذا لم أجد ما أسد به جوعهم أطعمتهم جوعي... كنت أروي عطشي بالسراب وأجتهد لينعموا بالماء الزلال... كنت ألتحف نسمات البرد في الليالي القارصة ليهنأوا بالغطاء الوثير... ومع مرور الأيام وتعاقب الأزمنة وتغير الأحوال والاختلاف الذي طرأ على النفوس!! تغير ذاك الإنسان وتحول إلى عدو ناقم على الإنسانية ومن قبل ذلك على نفسه أيضاً!! كنت شمعة تحرق نفسها لتضيء وتنير الظلمات لمن حولها ولكن تلك الشمعة سقطت في هشيم يابس لتحرق ما يمكن أن تطاله فأحرقت نفسها ومن حولها...!!! عندما أردت ان أنثر معاناتي على هذه الأسطر أحسست بالشتات وانتابتني حيرة عارمة وكان مصدر ذلك سؤال يلح في ذاكرتي من أين أبدأ؟!

قصتي مزيج من الأوجاع وخليط من الآهات ويجمع هذا وذاك الألم.. عندما يغوص شخص في قصتي ويبحر بين أحداثها

يخيل إليه أنها قصة «فنتازية» ولكني سوف أجمع أهم خيوطها وأبرز أحداثها وأبقي لي الكثير الذي سوف يطوى معي عندما أودع كفني..

إن ما سطرته واقع عايشته وأحداث عاصرتها بجميع تفاصيلها وإن ما سأذكره ليس من نسج الخيال أو من بنات أفكاري بل الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة... عشت في منزل يحتضن أسرة متماسكة... بين جدران منزل تكسوه الألفة وتغطي سقفه المودة وتعتري أعمدته المحبة الصادقة.. أنا اكبر الأبناء والذكر الوحيد بين أربع إناث، اجتهدت في دراستي تفوقت على أقراني مما ولد حباً أشعر به في أوساط مدرستي.. توفي والدي وأنا ابن العاشرة، ولحبي العميق لأسرتي آثرت أن أترك دراستى وأجتهد في البحث عن عمل يبعد عن أسرتي ذل السؤال مع العلم أن والدي كان ميسور الحال، ولنشوب خلاف بين أعمامي حول ورثة والدي دفع العائلة إلى أروقة المحاكم مما أخّر صرف الحقوق للورثة، أحسست أن فترة الانتظار سوف تطول وحتماً سينفد ما تدخره والدتي من مال.. بحثت عن العمل ولصغر سنّي وقلة خبرتي وافتقاري إلى الشهادات التعليمية لم يكن طريقي ممهداً للوصول إلى ما أصبو إليه...

بعد أن أضناني اليأس وجدتها عند أحد المقاولين وكانت تلك الوظيفة عامل بناء قبلتها بالرغم من أنها كانت ذات أجر زهيد

وعملاً شاقاً مضنياً.. كنت أبدأ العمل منذ الصباح الباكر أتسابق مع الشمس أي منا يصل إلى مقر العمل قبل الآخر وكنت في أوقات كثيرة أصل قبلها ولكنها كانت دائماً تتركني وتذهب وأبقى إلى ما بعد غروبها، منذ أن تفتح الشمس جفنها إلى أن تغض طرفها وتسدل رموشها، أقضي ما يقارب العشر ساعات يومياً، في حمل الطوب والأخشاب وأحمل معها العديد من الطموح والأحلام والكثير من الألم... كنت أحملها على ظهري.. ظهري الذي لم يشتد عوده، وأصعد بها إلى أعالي الأدوار ومع صعود كل دور أشعر بأن أنفاسي سوف تحبس وبأنني أقترب من الموت لكنني أنعم بالحياة عندما يغلبني الشعور بفقدها.. عندما أنزل عن ظهري ما حملته!! ناهيك عن الإجهاد النفسي جراء سيل العبارات المهينة المتدفقة من أفواه رؤسائي في العمل كي لا أتباطأ في إنجاز عملي والمهام الموكلة إلي.. استمررت على هذا الحال قرابة العامين.. كان جميع ما أتقاضاه من دخل مادي أضعه في يدي والدتي لتتصرف في أمور المنزل وشؤون أخواتي بعدها تنقلت في عدة أعمال كان آخرها أن وقفت على أمر كشك لبيع «البليلة» والبطاطا في الحي.. عشت حياة قاسية وجل قساوتها تكمن في معاناتها التي لا يخفف منها سوى أحضان أسرتي، ما يدفعني إلى عمل المزيد والسير بخطى حثيثة لإسعادها والبحث الدائم عن كل ما من شأنه ان يوصلني إلى ذلك مهما كانت تلك الطرق

والأساليب التي سوف اتبعها! ومن مجمل الطرق والأفكار، فكرة مدمرة عرضها عليّ أحد أبناء عمومتي وهي أن أتعاطى الحبوب المنشطة لأستطيع بذل جهد جبار ومضاعف وفي فترة وجيزة دون الإحساس بالتعب ليس هذا فحسب بل إن ذلك سيكسبني نشوة لا سبيل إلى تغييبها وبمزيج من القوة التي سوف أشعر بها، وأكد بأن ليس لها مضار صحية أو مخاطر نفسية وأكبر برهان على ما يقوله أنه يقوم بشرائها من الصيدلية القابعة في زاوية الحارة، وفعلاً كنت دائم الذهاب معه إلى تلك الصيدلية لشراء تلك الحبوب، كان يشوب الموقف بعض علامات الاستفهام أثناء قيامنا بالشراء لم أعرف إجاباتها إلا في ذلك اليوم الذي سافر فيه هذا القريب مع أهله لزيارة عائلية في منطقة بعيدة، شعرت بحاجة ملحة إلى تلك الحبوب فاتجهت فوراً إلى المكان المعتاد في زاوية الحي «الصيدلية» لأخذ مبتغاي ولسوء حظي «كما اعتقدت وقتئذ» وجدت الصيدلية مقفلة فاتجهت أبحث عن صيدلية أخرى ولكني مع كثرة استمراري في السؤال عن تلك الحبوب بدأت علامات الاستفهام تتلاشى وتختفي شيئاً فشيئاً وبدأت تسكن بدلاً منها حقائق واضحة وذلك من خلال حديثي مع العاملين في كل صيدلية مررت بها، اتضح أنها نوع من المنشطات وتندرج تحت قائمة المواد المخدرة!!! بدأت أبحث عنها بطرائق أخرى مخفية إلى أن انتهى بي المطاف إلى عدد من الذين يمتهنون ترويجها

وكأني نصبت لنفسي فخاً مميتاً دون أن أشعر فمنذ ذلك الوقت وأنا أسيراً لها... في تلك الفترة كان يتناوب على زيارتنا أعمامي من أجل إيجاد الحلول والبدائل الممكنة في قضية الإرث الذي خلفه والدي، كانوا في قرارة أنفسهم يبحثون في السبل التي تقصي هؤلاء الأيتام عن نصيبهم وأن ينالهم نصيب الأسد من ذلك، علماً بأن مجموع الإرث لم يكن بالمقدار الذي يجعل هؤلاء الأعمام يعاملون أبناء أخيهم بهذة الصورة البغيضة والكره الواضح وكان أكثر ما ينشطون ويجتهدون في إثباته هو تشكيكي في نسبي وأنني لست من صلب ذلك الأب الحنون ومن كثرة ما كانوا ينعتوني به أصبحت في شك لدرجة التيقن بأنني ابن الخطيئة!!! استمر ذلك الوضع المهين والحال المرير والملازم للتفكير فترة طويلة وأنا أنعم بذلك الحضن الدافئ الذي يضمني بين أركان تلك الأسرة المترابطة والمتحابة التي لم يكن يكدر صفوها سوى من يحملون مسمى «العمومة»... أما أنا فلم يكدر صفائي مع أسرتي إلا شيء وحيد وهو أنني لست ابناً لتلك الأسرة! نعم.. هذه الحقيقة الأكيدة! حقيقة أن تستيقظ فجأة لترى العالم وقد تغيرت أبجدياته ولابد لك من إعادته إلى سابق عهده حقيقة جاءت متأخرة ولن أستطيع أن أصف ذلك الشعور لا لشيء وإنما لك أن تحاول أن تضع نفسك وتستشعره أنت؟! أن تعيش سبعة عشر عاماً وأنت تطلق كلمة أبي من قلبك قبل فمك... وأن تنطق كلمة أمي من داخل أعماقك قبل

أن تتفوه بها شفتاك وتقع تلك الكلمات على مسامع أناس يعلمون أنهم ليسوا بأهل لها وأن تعيش مع أخوة تتعامل معهم بكل معاني الأخوة الصادقة وهم يقابلون تلك الأحاسيس الوجدانية بالشفقة والإحسان والعطف تجاهك.. سبعة عشر عاماً تصارع قسوة الايام من اجل قوت أناس يخبئون عنك حقيقتك.. سبعة عشر عاماً تنتزع حقوقك كابن وأخ.. سبعة عشر عاماً تعيشها لغيرك.. سبعة عشر عاماً أنت من أنت؟!!!

بدأت خيوط الوصول إلى الحقيقة تتضح معالمها عندما ذهبت لاستخراج الهوية الوطنية وطلب مني الأوراق الثبوتية لإنهاء المعاملة فعدت إلى والدتي « مازلت أحسبها كذلك» وطلبت منها أن تزودني تلك الأوراق وأبدت استعدادها لكنها أصرت بإلحاح على عدم مغادرة المنزل ذلك اليوم لأنه سوف يأتي ضيوف لتناول الغداء، ويجب عليّ البقاء لاستقبالهم والترحيب بهم، جاء رجل ومعه ابنه وبينما نحن جالسون إذا بذلك الرجل يربت كتفي وبلطف متصنع يقول:

- والله وكبرت يا خالد وصرت رجال......

تعجبت من أمي لأنها تجلس معنا وتتناول الغداء ولم تطلعني بعد على نوع القرابة التي تربطها بذلك الرجل! ؟ أخذت الشكوك تساورني وتنتثر في خيالي!! في أثناء تناول الطعام وبدون

مقدمات أوتمهيد ونحن مستغرقون في الأكل إذا بأمي تطلق بعض «النحنحات» وتقول:

– يا خالد ياولدي شفت الرجل إلى جنبك، هذا أبوك الحقيقي وإلى جنبه هذا أخوك الصغير.

لم أصغ إلى حديثها ولم أستشعر ما رمت به من تلك الكلمات تمنيت حقاً في تلك اللحظة لوكنت أصمّ! وما زاد من تلك الأمنية أن كلماتها ذكرتني بواقع ما كان يردده أعمامي بشأن نسبي، كلمات قذفت بها في سكون قاتل إلا من آهات مجلجلة تحركها أنفاسي المتعبة لم أرضَ الهوان لتلك الآهات أن تحبس وتقتل في مهدها وأعلنت صارخاً في وجهها:

أنا ولد جابر.. أنا ولد جابر..

وإذا بالرجل يقوم من مكانه ويقترب مني محدقاً ثم يصرخ في وجهي:

– أنا أبوك يا ولد تفهم!!!

تملكني شعور بالمرارة إزاء تدميري وفقدان هويتي صرخت في وجه الجميع:

– أنا ولد جابر.. أنا ولد جابر.. أنا ولد جابر...

لم تسكت صرخاتي إلا يد غليظة سطرت على خدي معنى الأبوة الغائبة.. انهال عليّ « والدي» بالضرب لكي يفهمني أو ربما أراد أن يمحو غيابه وإهماله طوال السنين الماضية، وأن ذلك دور

يليق بمن أراد إثبات أبوته ولا عزاء لمن قحف من كأس الغياب حتى الثمالة، فهل بهذا العنف يمكن أن يمحو المرء غيابه أو أن يكفر عن أخطاء من الصعب إنكار تأثيرها في الواقع المعيش، حتى وإن ارتكبت في الماضي القريب، بعدها فهمت حكاية من أكون!!

فلقد مات الحنان بعد أربعين يوماً.. مات في مهده.. انقطع العطف قبل أن يُحتضن.. فقدت أمي بطلاقها من أبي بعد ولادتي بأربعين يوماً ومن ثم أوكل إلى جدتي لأبي مهام تربيتي.. عشت في كنف جدتي.. ترعرعت بين يديها.. سقتني الأمومة من ينابيعها ولكنها مع هذا كله لم تستطع أن تصل إلى منزلة والدتي.. كبرت تحت ناظريها شيئاً فشيئاً.. نعم هي أمي التي ربتني وكانت متزوجة شخصاً آخر (غير جدي) يدعى جابر ولديه أربع بنات من زوجته السابقة... هو بدوره وتلقائياً نصب نفسه مكان والدي.. لم يحتله عبر القسر والإكراه وإنما كان طوعاً مني وحباً به وذلك لسبب بسيط عندما أبصرت الحياة رأيته هو من يقوم بدور أبي المُغيب!

ذهبت بعد أن أخذت أوراقي الثبوتية من والدي واستخرجت هويتي الوطنية وبعدها عدلت كل شهاداتي الدراسية وكل أوراقي الثبوتية التي كنت مضافاً فيها إلى زوج جدتي جابر، ولم يكن ذلك بالأمر السهل لقد كان شاقاً جداً، ومشقته تكمن في أنك تحاول أن تبحث عن هويتك... أن تعيد ترتيب شخصيتك... وتلملم

أحاسيسك.. وأن تعيد إنسانيتك التي سلبت منذ سبعة عشر عاماً إلى نفسك!! وأن تعيد حساباتك وتبعثر أوراقاً كنت تحسبها «مرتبة» وأن تبين حقيقة وجودك، وجودك الذي اكتنفه الغموض طوال سبعة عشر عاماً، بعد انجاز هذة المهمة البالغة الصعوبة التحقت بالعمل في وظيفة حكومية خارج المدينة التي يسكن فيها أهلي الحاضنون وأهلي البائعون، أصبحت معاقراً للكحول بالإضافة إلى الحبوب التي كنت أتعاطاها من قبل وبصورة مستمرة لعلّي أجد نفسي التي أبحث عنها داخل أعماقي الممزقة.. عشت في تلك المدينة أربع سنوات ثم رجعت إلى مدينتي، كان سبب عودتي أنني فصلت من عملي لغيابي المتكرر والإهمال الواضح في عملي جراء الانغماس في تعاطي تلك السموم.. في تلك المرحلة بدأ والدي يتقرب ويتودد ويحاول بشتى الطرائق إرجاع يده اليمنى التي بترها منذ زمن!! رجعت إلى والدي مجبراً والعجيب أن مرد ذلك كان حنوي عليه وقد بات طريح الفراش أوليته اهتماماً صادقاً وراعيت شؤونه وكنت أتنقل بين إخوانه (أعمامي) وبين جدتي (أمي التي ربتني) وبين الأربع بنات أخوات الطفولة بنات جابر!! أحسست بأبي في مرضه، دفعتني غريزة الابن لأبيه وأحاسيسها الجارفة التي تشوهت منذ بزوغها... بعد رجوعي إلى أهلي وجدت عملاً مناسباً وبراتب مغرٍ في وظيفة ذات سلطة أمنية!! ارتقيت في عملي، وجدت مكانتي التي أطمح

إليها ولكنني خسرت نفسي لأنني فرطت في الأمانة التي أوكلت إلي وخنت وطني ومن قبلها خنت نفسي لأنني استغللت ذلك المنصب لمصالحي الشخصية ورغباتي الإدمانية.. أثناء ترددي المتكرر إلى منزل أعمامي تعلق قلبي بفتاة في منزل تلك العائلة أخذت أبحث من تكون هي؟ وبطرائق غير مباشرة لخوفي من التفسير الخاطئ أو تكون عليها علامات استفهام لأنني أراها دائماً تقوم بتنظيف البيت وتدبير شؤونه! اتضح أنها ابنة عمي سالم ومن شدة تعلقي بها تقربت وتوددت إلى والدها بشتى الطرائق وتبين أن هذا العم كان يتعاطى الكحول في السابق وبحيل متعددة استطعت وبكل خبث أن أرجعه إلى هذا الطريق وأن أجعله يدمن الكحول ومن ثم أصبحت أؤمن له كل مايحتاج إليه من الكحول... ونشرب معاً!! وبعد فترة وجيزة صارحت أمي (جدتي) برغبتي تلك ولكنها رفضت بشدة ولم تبرر ذلك بل اكتفت بقولها:

- إني اعلم بالأمور أكثر منك ولا أستطيع أن أخبرك بكل شيء!

مع العلم أنهم أشقاء والدي من أبيه ولكنني أصررت على الزواج من تلك الفتاة وكانت أمي (جدتي) قد أشهرت رفضها القاطع في الحضور هي وأخواتي (بنات جابر) وكانت لدي الرغبة الحثيثة في حضورهم ولكن كل محاولة إقناعهم بحضور حفلة الزفاف باءت بالفشل وقررت ألّا أيأس من المحاولات والاستمرار

في طريق إقناعهم، ولكن قرب موعد الزفاف حال دون ذلك ولم أستطع تأجيله لأن بطاقات الزفاف قد وزعت على المدعوين.. تم الزفاف في موعده المحدد وحين الانتهاء من مراسيم الزفاف في ساعات الصباح اصطحبت زوجتي وهي في حلة زفافها ونحن في طريقنا إلى بيت الزوجية الذي سبقتنا إليه أحلامنا قبل أن تطأها أقدامنا اتصلت بأمي وأخبرتها بأنني سوف آتي وأريها من اختارها قلبي ولكنها فاجأتني بردها حيث أخبرتني أنها في المستشفى لأن إحدى أخواتي (بنات عم جابر) في المستشفى والجميع هناك، لم أدع زوجتي حتى أن تبدل فستان الزفاف فتوجهت أنا وهي إلى المستشفى.. كان يوم زفاف حافلاً بالمفارقات أوله في قاعات أفراح.. الزغاريد والأهازيج والابتسامات تغطي الأركان، وآخره في المستشفى بكاء وألم وآهات تملأ المكان!!! باركت أمي زواجنا وأخواتي ثم توجهنا إلى عش الزوجية الذي كانت تخطط له زوجتي منذ البداية وترسم اللوحات الوردية التي سوف نزين بها العش الموعود.. عشنا في بيت الزوجية كما خططت له زوجتي، ولكنني غيرت ملامحه وشوهت معالمه، استبدلت تلك اللوحات الوردية بلوحة واحدة حيث جعلت من زوجتي لوحة ذات لون أسود تقبع في ذلك العش الذي تحول إلى جحيم لا يطاق.. أذقتها أصناف العذاب... أسمعتها أقبح الشتائم.. سطرت على جسدها أفظع المناظر.. كانت السمة التي تميز علاقتنا الزوجية هي الحرمان.. الحرمان من كل شيء إلا العذاب.

في يوم من الأيام بعد زواجنا بما يقارب العام ذهبت إلى منزل عماتي كالمعتاد، ولكن الأمر في هذا اليوم كان مختلفاً تماماً، تخاطفتني عماتي الواحدة تلو الأخرى وعلامات السرور والبهجة تعتري محياهن وأخبرنني بأن هناك مفاجأة سارة في انتظاري وسوف تفرحني وتدخل البهجة إلى قلبي.. ومع طول الانتظار في فتح الستار عن هذة المفاجأة أخذت الأفكار تلعب في مخيلتي وسؤال يلح في خاطري.. ماذا يخبئ لك القدر بعد ياخالد؟!

وللأسف إنها لم تكن مفاجأة سارة بل كانت فاجعة قاتلة.. جاءت عماتي ومعهن امرأة في الخمسين من عمرها تقريباً وعند دخولهن إلى المكان أشحت نظري عنهن لأن معهن امرأة لا أعرفها ولكن عمتي الكبيرة وبصوت عالٍ قالت:

- يامجنون ليه تخبي وجهك؟.. اشبك هذي أمك.. أمك الحقيقية.

ساد المكان صمت مخيف والتفت نحو تلك المرأة وحدقت إلى عينيها.. لم أشعر بإحساس يدفعني نحوها ولم تتحرك عواطفي نحوها كما كنت أشاهد مواقف مشابهة في الأحداث الدرامية في المسلسلات العربية... وقتها لم أشعر إلا والأحرف تتدافع من فمي وبحركة مسرعة:

- هذي أمي! فينها من أول؟؟ هذي ماهي أمي.. أنا أمي الحقيقية خديجة.. أمي الحقيقية خديجة.. أمي إلى أحبها خديجة... أمي خديجة.. هذي ماهي أمي..

انصرفت من ذلك المكان مسرعاً وذهبت وارتميت في حضن أمي التي ربتني وأحسست بها ونثرت دموعي قبل أحرفي في حضنها.

اشتد مرض أبي في أيامه الاخيرة أنهكة المرض، كنت اقضي جلّ وقتي في القيام بمتطلباته والمكوث إلى جواره، علمت من أمي خديجة أن السبب المباشر في مرض أبي هو أعمامي الذين احتالوا عليه في أمور مادية مما جعل والدي يخسر كل ماجمعه في حياته السابقة ويتأثر بذلك.. غضبت غضباً شديداً عندما تكشف هذا السر أمامي فحال أبي المريض أثر كثيراً في فؤادي.. ولم يكن أثره في نفسي بأقل مقداراً من الذي لحق بجسده، كنت أود لو أن هذا المرض رجل لأتصارع معه وأظفر بقتله، ولم يكن المرض كذلك، فقد وهبت نفسي للتصدي لمسببه على اقل تقدير وإني قادر على مصارعته وهم أعمامي... عقدت العزم على الأخذ بثأر أبي من إخوته وبدأت بإيجاد الآليات والخطط التي سوف أقوم بها لتنفيذ تلك المهمة فكرت في أمور متعددة لرد تلك الإساءة التي ألحقوها بوالدي وكانت ذات استراتيجيات بعيدة المدى ومتعددة المراحل وصعبة الهدف ومجهدة في التفكير ولكني وجدت الحل! أقصر الطرق وأسهلها واضمنها نجاحاً وفتكاً... المخدرات! نعم إنها المخدرات هذا الجيش الأعمى الذي يفتك ويدمر كل من نازله أو جابهه.. لم أراع أنهم أشقاء أبي.. لم أراع

إنسانيتهم.. لم أراع العذاب الذي سوف يحل بهم.. لم أفكر إلا في الانتقام ولا شيء سواه.. فعلاً تم المراد وبطرائق خبيثة وخطط شيطانية جعلتهم عائلة مدمنة للمخدرات لم أستثن أحداً من هذه الحرب المدمرة اثنان من أعمامي وثلاث من عماتي أصبحوا مدمني مخدرات هذه الحصيلة النهائية للحرب التي خضتها معهم وكانت بسلاح واحد هو الهيروويين... شعرت بالفرح أحسست بالسعادة الحقيقية، ذقت طعم ولذة الانتصار.. انتصار الجبناء! وكانت تلك الأحاسيس كل يوم تزيد عن سابقه عندما أرى انغماسهم في هذا الوحل وتردي أوضاعهم وسوء أحوالهم!!! كانت انتصاراتي يومية حيث أجلب لهم المخدر يومياً لأدخلهم في نشوة ضياعهم وأدخل أنا في نشوة وحشيتي.. بعد فترة طويلة من الزمن وعندما رأيت بوادر النصر تلوح أمامي جعلتهم هم من يقومون بجلبه وتعاطيه وتخليت عنهم... ولم أنس والدتهم حيث وضعت لها ذات مرة في إبريق الشاي الخاص بها الذي يكفي لملء كوبين صغيرين والذي تحتسي منه الشاي يومياً وضعت لها خمسين حبة بالعدد من الحبوب المنشطة (الكبتاجون) في ذلك الإبريق ما جعلها تصاب بجلطة قلبية وتدخل المستشفى، الأمر الذي قاد حالتها الصحية إلى تدهور مستمر!!

في تلك الأثناء كان لعماتي سلوكيات غير سوية مما كان يضايقني جداً وكان أزواجهن كثيري الشكوى منهن أمامي وقد

ضاقوا ذرعاً بذلك الحال وأصاب أفواههم القحط والجفاف لكثرة ما يشكونهن إلى أعمامي الكبار (اخوانهم) بدأت ألاحظ تحركاتهم وأضيق عليهم الخناق أراقب تصرفاتهم وحتى أصبحت أعد عليهم أنفاسهم وكانوا دائماً يجدونني أمامهن كلما أحسوا بغيابي!! ومع طول هذا الحال أرادوا فك الحصار بشتى الوسائل الممكنة ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.. في ذات يوم جاءت عمتي الصغرى وكانت تدعى سهام وأخذت تتحدث وتتمتم بكلام لم أفهمه ولكنها أفصحت وأوضحت في آخر الأمر بجملة جاء فيها:

- أنا لست عمتك! أنا لست أخت أبيك..

بدأت بتوضيح هذا الأمر بالدلائل والبراهين، وسرد الأحداث الواحد بعد الآخر بتسلسل زمني من حاضرها إلى ماضيها البعيد، ومن تلك الدلائل اوراق رسمية ومستندات حكومية، وأنها ليست مضافة إلى دفتر العائلة لجدي وكان هذا حقيقياً لأنه عند عقد قرانها وكنت حاضراً أثناء كتب عقد الزواج حيث تم تدوينه واثباته بشهادة الميلاد فقط، واسترسلت تزج بالدليل خلف الآخر (كنت حينئذ متعاطياً للمخدر) وان جدي عثر عليها وهي رضيعة ومغطاة بشرشف ممزق أمام مسجد الحي فأخذها وضمها إلى أسرته وأضافت أن هذا سر لا يعرفه احد من أفراد العائلة وينبغي أن لا أبوح به من اجل ألّا تتغير نظرات المحيطين بها وتنعت «

باللقيطة» وافتضاح أمرها هذا سوف يجرها إلى أمور قد تجلب عليها المتاعب والشقاء.. قبلت هذا الأمر وأيقنته... جمعتنا علاقة حميمة لإحساسي أنها تذكرني بالماضي الأليم.. شعرت بأن همومنا مشتركة وبأن ألمنا واحد.. ولكن الفرق أنني عرفت من أكون متأخراً أما هي فإنها لم تعرف من تكون!!! تطورت تلك العلاقة وأصبحت علاقة عاطفية أحببتها حباً دفيناً.. حب المعشوق المتيم.. كنا نتعاطى المخدر معاً ونحلق معاً في فضاء الوهم.. أصبحت رفيقتي في كل شيء حتى في العشق.. تعدى ذلك إلى العلاقة غير الشرعية التي كنا نمارسها في فراش الرذيلة.. كانت ترافقني في حلي وترحالي وأجلسها مع أصدقائي في ليالينا الصاخبة التي تجمع أنواع القاذورات وجميع المخزيات.. وأتباهى بها أمامهم بكل فخر وكبرياء.. استمر بنا الحال قرابة عشر سنوات كانت عالمي الذي أعيش فيه ومنفاي الذي أحن إليه.. وملاذي الذي أحتمي به... وبعد تلك السنين في حياة العشق.. عشقنا الحياة..

باغتنا عمي الأكبر بعد أن جهد في البحث عنا في الشقة التي كانت لنا موطن الغرام وعش الرذيلة وألح علينا بضرورة الرجوع إلى حمى العائلة ولكنني رفضت بشدة، وأخبرته بأن ليس له سلطة علينا، وفي نهاية المفاوضات ترك لي حرية العودة وألغى ذلك الحق لعشيقتي سهام وأجبرها على الذهاب معه إلى منزل العائلة

ولكنني وقفت أمامه الند لخصمه ومنعته من أخذها... وأسهبت في الحديث عن عشقي لها وأنني فضحت سرهم وعرفت كل أحداث حياتها وأنها ليست من العائلة لقد سردت تفاصيل الرواية التي قصتها سهام قبل عشر سنوات... وكان عمي ينصت بدهشة بالغة وحيرة عميقة ثم مالبث أن تقدم نحوي قبل أن أنهي حديثي وصفعني بكف يده المبسوطة بقوة شديدة، وانقض على سهام وراح ينهال بالضرب المبرح عليها وهو يردد سؤالاً واحداً:

- ليه سويتى كذا؟!

وبعد أن أعياه الإجهاد من كثرة الضرب وأنا في ذهول لما سطرته يده على صدغي صرخت سهام ونظرت إلى وجهي:

- سويت كذا علشان ننفك من شره... ننفك من شره أنا وأخواتي.. أنا عمتك.. أنا أخت أبوك.. وعلى فكرة كل العائلة عارفين بالشي هذا كلهم وسويته بالاتفاق معهم ماعدا انتم الاثنين «تقصدني وعمي الأكبر».. وكنت أنا سبابة المتندم لكل العائلة إلى كل همهم وتفكيرهم كيف يدمروك يا ولد اخوي... وكل إلي قلته كان كذب وحيله بس علشان أبغى أعيش على راحتى وبالطريقة إلى تناسبني...

عند سماعي هذه الصاعقة سقطت مغشياً عليّ.. أفقت بعد ساعات ولم أجد سوى عمي الأكبر فسألته:

- أين سهام؟

فأجابني قائلاً:

- قصدك عمتك سهام!

كانت كلمة « عمتك سهام» واقعاً شعرت به... نعم إنها اسم على مسمى.. سهام غرست في كل أجزاء جسمي ورحلت، منذ ذلك الوقت لم أرَ عمتي سهام ولكن جروحها لم تزل تنزف الدمع مع الألم.. ألى هذا الحد يصل الإنسان في تعامله الوحشي مع الآخرين تحت تأثير إدمانه؟ هل كان عشقي يفكر في الخبث كما هو الحال في تفكير انتقامي؟ هل غرامي لم يجد فؤاداً يحتله من الإناث اللواتي يستوطن عالمي سوى شقيقة والدي؟!.

في سلسلة الدمار التي أصبحت شغلي الشاغل وتفكيري الأوحد في إيقاع كل من حولي في هذا الوحل، لم تسلم زوجتي فقد كنت دائماً أتحايل عليها بكل الطرائق المباشرة والملتوية لكي تكون شريكتي في ضياعي ولكنها ارادة الخالق فكانت هي الوحيدة التي استطاعت الهروب من شباكي، فعوضت خسارتي في والدتها فقد كنت أضع لها الكحول في كل ما تشربه عندما أذهب إليها وكنت أتردد إليها كثيراً...

أما رؤسائي في العمل فقد كان اصطيادهم سهلاً جداً بحكم علاقاتي الحسنة بهم وتفانيّ الواضح في عملي وكل ذلك من أجل أن أصل إلى مكانة احتلها في نفوسهم قبل أن أحتل إنسانيتهم وأوقعهم في تلك الأشراك اللعينة.

حتى أختي من أبي لم تسلم من لعنتي ولكنها لم تكن في الإيقاع بها في تلك السموم لكنها كانت لعنة مختلفة، ذات يوم عدت إلى المنزل وفي نشوة سكرتي، دخلت الغرفة التي تنام فيها من غير قصد فكانت نائمة فلم أجد أمامي إلا أنثى انقضضت عليها كالوحش المفترس عندما يختلي بالحمل الوديع.. صرخت بعبارات الظلم وبكت بكاء الشرف وتساقطت من عينيها دموع الاسترحام..

وعندما هممت بها أخذت تردد وهي غارقة في حالتها تلك:

- أنا أختك.. أنا أختك.. أنا سحر... سحر أختك... اصحى... شوفني... اصحى...

أحسست بشيء داخلي لم أستطع تفسيره، صحوت من سكرتي، تذكرت معاناتي مع عمتي «سهام» خرجت مسرعاً ولم أحدث في جسدها ضرراً.. ولكنها دُمرت نفسياً وظلت مريضة فترة طويلة مرضاً نفسياً جراء تلك الحادثة.

كنت قاس القلب مع ابنائي الذين لم تنجبهم زوجتي! فلقد تزوج والدي امرأة غير سعودية وأنجب منها تسعة أبناء وبعد طلاقهما تعهدتهم وزوجتي بالإيواء والرعاية... أما أبنائي فقد توفوا جميعهم وكان لدي سبعة أبناء جميعهم توفوا منذ خروجهم إلى هذة الوسيعة ماعدا آخرهم، لقد توفي وعمره سنتان تقريباً وكان موته غرقاً.. لم أستشعر فراق أحد منهم ولم أكن احمل

مشاعر إنسانية في حياة التعاطي ناهيك عن مشاعر الأبوة! كنت أتعامل مع أخوتي على أنهم ابنائي وكان تعاملي معهم يتميز بالصرف المالي والوحشية والقسوة والتعذيب المستمر... من أبسط المواقف التي استطيع ذكرها بشأنهم أنه ذات يوم دخلت المنزل وكنت متعاطياً سمومي وإذا بزوجتي تخبرني بأن أخي الذي لم يتجاوز العشر سنوات لم يحفظ دروسه وكان فعلها من باب الحرص عليهم لأنها كانت تعاملهم كأم لهم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ نبيلة، ومبتغاها من ذلك هو أن أستنهض همته من اجل الاستذكار ذهبت إلى أخي في غرفته ودخلت عليه دون أن أتفوه بكلمة فإذ بدموعه تتساقط كزخات المطر الممزوجة بالبراءة الواضحة ونظراته التي توحي بخوف شديد من المجهول جلست بجواره وانتزعت الكتاب وبدأت تفهيمه وهو في حالته تلك.. ضاق بي حاله وأمسكته من قدميه وفتحت شباك النافذة التي تطل على الشارع وكانت حجرته في الدور الثالث وأخرجته منها وأنا ممسك بقدميه وجذعه العلوي يتأرجح خارج النافذة وقلت له:

- اذا ما حفظت مره ثانية راح ارميك من هنا.. تفهم!

وهو يصرخ ويتوسل، حالفاً بأغلظ الايمان أنه لن يتوانى في أداء واجباته وحفظ ما يوكل إليه، كل ذلك لم يشفع له ويبقيه على مقربة من السلامة وفي منأى من الخطر، فسرعان ما حللت يدي عن قدميه ثم صرخات بأعلى صوتي منادياً زوجتي وقلت لها:

- روحوا جيبوا سلطان من تحت انا رميته علشان مره ثانية يحفظ!!!

أُدخل أخي بعد تلك الحادثة المستشفى وظل في العناية المشددة مدة ثلاثة أيام وخرج من المستشفى بعد شهر تقريباً.. كما سبقت في القول هذا الموقف يعد من أبسط وأخف الأضرار التي ألحقتها بإخوتي.. ناهيك عند دخولي إلى المنزل وكأنني أسد مفترس يدخل غابة تعج بالحيوانات الأليفة.. وفي أثناء دخولي كان كل واحد منهم يستعد لفتح باب قبره.. وعند خروجي من المنزل يتمنون أنها المرة الأخيرة التي يرون فيها ظهري لأنه لا يجرؤ أحد منهم على النظر إلى وجهي.. توفي زوج والدتي التي خرجت من رحمها إلى هذا الكون، وبحكم أنه ليس لها عائل غيري زججت بها هي الأخرى في المعتقل، فيما أخرجت والدي إلى شقة اخرى وظللت معه في تلك الشقة.. كنت أتفنن في إيجاد الشتائم لأمي.. اقذفها بالألفاظ البذيئة والصق بها الصفات الذميمة.. ادعو عليها بالموت وأتمنى لها المرض.. على مرأى ومسمع كل من حولنا.. وإذا أردت مداعبتها والتلطف معها أمازحها بعبارات لا تليق بمقامها كأم إذ كنت أقول لها دائماً:

- متى راح تموتي منت ملاحظة انك طولتي...؟

وأطلق بعدها الضحكات وأقهقه حتى أستلقي على قفاي!!!

كنت أعطيها مصروفاً مع راتب كل شهر اتقاضاه، أضعه بين يديها

في الصباح لأعود مساءً لسرقته من خزانتها وفي اليوم التالي تأتي وتخبرني بأنها قد سرقت، أجمع كل اخوتي وأقوم بضربهم لكي يعترف أحد بأخذ تلك النقود التي سرقتها وكان في بعض الأحيان يتبرع أحدهم ويدعي أنه هو من سرقها لكي ينقذ الآخرين من العذاب الذي سيحل بهم...

أما عن ظلمي خارج نطاق عائلتي فحدث ولكن بحرج!! الحديث في هذا الشأن له نصيب كبير من الألم وعذاب يطول الخلاص منه داخل نفسي على ما أجرمت في فعله، ومنها أنه في أحد أيام رمضان المبارك التي تصفد فيها الشياطين كان تفكيري هو الشيطان الذي لايهدأ ولا يكل.. كنت أوصل زوجتي عند أسرتها لتناول وجبة الإفطار قبيل غروب الشمس وأتوجه بدوري إلى منزل أهلي للغرض ذاته.. بعد أن أوصلتها وأنا أسير في طريقي إذ بي ألمح في الشارع المقابل فتاتين تسيران بمفردهما، أوقفت سيارتي بجوارهما وبطريقة ما أقنعتهما بأن نذهب معاً لقضاء أوقات سعيدة وكانت الفتاتان ترددان:

- اشبك انت صاحي؟ احنا برمضان اتق الله خاف ربك.... حرام عليك... كمل صيامك وروح أفطر... استغفر ربك.

أخذت ألقي عليهما الحيلة تلو الأخرى، وأتعسل بالكلام المنمق وأنني لن أؤذيهما وبعد طول جدال وخوفهما من نظرات المارين واتقاء للشبهات قبلتا دعوتي على مضض.. توجهت بهما

إلى المنزل ونحن في طريقنا اشتريت المخدر وجميع ما يتطلبه الحال في هذه المناسبات الماجنة.. وصلنا إلى المنزل وجلسنا معاً وأثناء ذلك أصرّتا على الخروج من المنزل ومغادرته وأخذتا تلحان بشدة، لم أستطع اقناعهما بالجلوس بجميع الوسائل السلمية فقررت حينئذ أن أبين حقيقتي وأن أبين لهما شخصيتي الحقيقية التي كنت احاول إخفاءها خلف القناع المزيف، قمت بإحضار حبل مجدول وأخذت أربط يد كل واحدة منهما بيد الأخرى وكذلك فعلت بقدميهما ومن ثم علقت أيديهما في النافذة.. اصبحتا ملتصقتين معاً، ومعلقتين في تلك النافذة فقمت بنزع جميع ملابسهما وأخذت أضربهما بسوط غليظ، لم أكتف بذلك بل قمت باغتصابهما، وقد تكرر هذا الحال في فترات متقطعة ولمدة ثلاثة أيام وهما على تلك الحال بالإضافة إلى حرمانهما من الأكل ولم يكن يتوافر لهما شرب الماء الا في دورة المياة إذا رغبت إحداهما في قضاء حاجتها!! كنت في تلك الأيام الثلاثة من الشهر الفضيل وكما هو الحال دائماً أنام النهار كله ثم أصحو عند غروب الشمس وأدخل عليهما في الغرفة، اقصد تلك الزنزانة التي أقمتها في منزلي.. ولا أقوم بشيء سوى ضربهما وإهانتهما بأشياء يستحيل ذكرها سواء لفظياً أو جسدياً ومن ضمنها وأبشعها كما أسلفت الاغتصاب بطرائق وحشية لا يصدقها العقل البشري السوي! وإذا أشفقت عليهما ورأفت بحالهما أقوم بأكل أطيب

الطعام أمامهما واتفنن في تذوقه بكل وسائل التشويق والترغيب!! في اليوم الثالث جاء احد الأصدقاء ورآهما بهذه الحالة الرثة وأخذ يقنعني بضرورة إطلاق سراحهما وفك قيودهما ويحذر من مغبة هذا الصنيع الذي قمت به وبعد محاولات متكررة منه رضخت لطلبه وقمنا بإخراجهما من المنزل بطريقة يصعب التعرف إلى مكان أو معالم الشقة التي نحن فيها لأنني كنت حريصاً على ذلك حتى في دخولهما.

في لحظات انغماسي تلك واقترابي من النهاية وأعتقد أنني بلغت النهاية.. النهاية في كل شيء.. توفي والدي، نزل الخبر علي كالصاعقة واختار له ربه الانتقال من دار البوار إلى دار القرار.. توفي والدي.. توفي أبو البنات السبع.. انتابني شعور مخيف مع أنني كنت أتوقع موته في كل لحظة للأمراض والعلل التي تنتابه والتي كانت تنخر معظم أعضاء جسده ولكن ما أخافني بحق مصير تلك الزهرات السبع والفتى اليانع والأخ المعاق أخذت أفكر في حالهم ولمن سوف أدعهم؟؟!

بعد الانتهاء من مراسيم العزاء لوالدي جاءني استدعاء من المحكمة لأن زوجتي تطلب طلاقها.. ذهبت إلى المحكمة وأنا في غاية الانكسار وقمة اليأس وفي أوج الندم من جراء وفاة والدي.. تلا القاضي لائحة القضية المرفوعة ضدي وكان فحواها الاصرار على الطلاق لتعاطي المخدرات وعدم الرغبة بالعيش في وهم الزوجية الكاذبة التي لم ينلها منها إلا اسم زوجة! والعذاب

المستمر في تلك السنين الطويلة.. أخذ القاضي في نصحي وتقديم المواعظ المؤثرة التي لامست وجداني والتصقت في فؤادي وأثرت فيّ أيما تأثير.. كلمات لم أسمعها قط أو لم أستشعرها مسبقاً وعرض علي أنه سوف يعلق تنفيذ النطق بالحكم إلى حين علاجي من هذه السموم، رغبني في العلاج وأقنع زوجتي بذلك.. ذلك القاضي الشيخ الجليل من المسارات التي حولت تاريخ حياتي وعلامة فارقة في رحلة ايامي بعد الحدث الجلل المتمثل في وفاة والدي.. اقتنعت بذلك وذهبت إلى المستشفى طامعاً في الخلاص من هذا الداء الفتاك لم تكن الرغبة في بداية الأمر واضحة معالمها بداخلي.. لم أعرف ماذا أريد؟ بدأت تدب بين أروقة شراييني رغبة جامحة في مواصلة علاجي.. أخذت أقتنع شئياً فشيئاً باستكمال مشواري.. أصررت على الوصول بصدق إلى التعافي.. رغبة في الانتصار على التعاطي.. عزمت على تحقيق حلم التشافي... بقيت في المستشفى مدة تقارب السنة.. خرجت لكي أبدأ من نهايتي.. أبدأ انسانيتي.. فتحت ذراعي احتضنت كل من حولي.. احتضنتهم بالحب.. غمرتهم بالود.. أغدقت عليهم الحنان.. ومازلت أفعل... أرجعت إنسانيتي التي سلبت مني أثناء تعاطي هذه السموم... حياتي التي كنت فيما مضى لا أعرف لها معنى سوى أنها حياة إدمان وأنني كائن مدمن ذو نفس تواقة إلى المخدر... سطرت هذه المعاناة منذ ثلاث سنوات.. ثلاث سنوات عمر حياتي.

# وقفة...!!!

خمسة شبان في زهرة الحياة وربيع العمر يقبعون في أحد دهاليز الظلام المنيرة بنيران المنكر.. تعاونوا وتحابوا على دمار أنفسهم في إعداد حقنة المخدر، الجميع يتعاونون ويتسابقون في إعدادها... يتناولها الأول ويبدأ بالطقوس المعتادة ثم يغرز سمه بيده في شرايينه، يسقط أرضاً يسمع أنينه مداعب لآهاته، أيقن البقية أن ما أصابه من قوة النشوة التي وهبت له من تلك الحقنة وبكل حب وجبروت ينتزعها الثاني من ذلك الجسم المنهك ويغمدها بكل شوق تحت جلده وتبدأ تلك الإبرة في أخذ دوراتها والتنازع عليها حتى استقرت في حماية الشاب الخامس؛ لكن سرعان ما أبصر ووعى أن رفاقه الأربعة قد فارقوا الحياة، فأدركته العناية الإلهية، وفطِنَ لما يدور حوله من تساقط الضحايا أمام ناظريه فأسرع إلى الخلاص من هذا العالم المميت وكان هذا المشهد الذي لا يتكرر إلا في عالم الإدمان الذي تضيع فيه

الحقائق وتتغير فيه كل المفاهيم سبباً في تعافيه وفكاكه من هذا السم القاتل.

أربع أنفس أزهقت في فترة وجيزة بسلاح واحد لا يعد له وزن ولكنه يحمل في داخله دماراً يفتك بمجتمع بأكمله يتناوب الجميع على مصارعته وهم في غمرة نشوتهم.

## اربعون عاماً... فقط!!!

سيرته المخيفة سبقت سياطه الأليمة، خفته قبل أن أنظر إلى عينيه، أحسست بعذابه قبل أن أستشعر عطفه... نعم كنت أخافه كما كان الجميع من حولي، لأنني باختصار لا أعرفه، وببساطة وجدت نفسي فجأة وبدون مقدمات أحيا مع شخص يقال إنه أبي!

كان هذا الأب لديه الكثير من الأولاد والزوجات وكانت أمي غير السعودية في يوم ما إحداهن، ولكنها فضلت المكوث في بلدها أثناء حملها بي وقد يكون هذا أحد أسباب طلاقهما المتعددة التي أجهل جلها، وربما كانت زيارته السنوية لنا في منزل جدي التي عادة لا تستغرق سوى بضع دقائق دون معرفتنا له ومن يكون؟ أحد الأسباب التي جعلتنا لا نعرفه وجعلتنا حتى لا نفرح بقدومه لأننا اعتقدنا ببراءة الأطفال أنه ضيف لجدي أو لأحد أخوالي، ولكني صدمت وانعقد لساني عندما قالت لنا أمي ذات يوم:

- عليكما بالاستعداد لأنكما ستسافران الآن للعيش مع والدكما في بلده، حيث كنا وقتها نعيش مع والدتي في بلدها.

غلفني الصمت أنا وأخي الذي يكبرني بعامين وكلّ منا جال في صمته وارتحل في ممرات دهشته! من يكون هذا الشخص الذي عشنا معه السنوات أباً وكن له ابناء؟ ومن هو الرجل الذي سنكمل معه طريق الابوة.

استعددنا كما أمرتنا والذهول العارم والصمت المطبق هما سيدا الموقف في تلك الأثناء، وبعد أيام معدودة توجهنا أخي وأنا إلى المطار.

ركبنا الطائرة المتجهة إلى المدينة التي يسكن بها والدي، وفي داخلي ألف سؤال وسؤال كيف ملامح أبي؟ هل لديه شاربان عريضان مثل أبي (أقصد جدي) هل سيحكي لنا الحكايات الشيقة مثل التي كان يقصها علينا جدي؟ هل سيحضر لنا الحلوى التي كان يغدق علينا بها جدي، والتي يبتاعها من كشك عم إسماعيل؟ وهل سيلعب معنا ويتعارك معنا مثل ما كان جدي يداعبنا ويمازحنا؟ وهل سيحبنا، وهل سيسمح لنا أن نسافر إلى البلد الذي عشنا فيه لسنوات تسع وهل... وهل.......؟ ولم ينقذني من تساؤلاتي سوى وصولنا إلى أرض المطار لم نجد أحداً في استقبالنا، غرقنا في دموعنا ولم نفق إلا على أصوات وصرخات، وحولنا بعض سائقي الأجرة الذين يتسابقون لقراءة اسمينا اللذين علقتهما

والدتي على ملابسنا، وفاز بنا أحدهم وطار بنا إلى منزل والدي ذي الصيت والسمعة (كما عرفنا فيما بعد) للفوز «بالبشارة» وفاز بها فعلاً من أبي عند وصولنا، أما أنا فلقد كان من نصيبي (كف) قذفت به فجأة عندما بادرته:

- أأنت أبي..... أنت الذي كنت تحضر أحياناً في منزل أبي الآخر وكنت أقصد به( جدي) لماذا لم تأت إلى المطار؟

كنت أود أن أقول له كم كنا فزعين، أخي وأنا حينما لم يأت أحد لاستقبالنا رغبت أن أعبر عن الخوف الذي ملأ ضلوعي، ولم أتمكن بسبب «الكف» التي انهالت على صدغي والتي جعلتني أنكمش داخل نفسي.

نمنا أول ليلة في منزل أبي والدموع تحرق وجهي وأنا أسامر طيف أمي كنت أريد أن أصرخ بأعلى صوتي أعيدوني إلى أمي، ولكني خفت أن أصرح بشعوري هذا حتى لأخي الصامت دائماً الذي زاد صمته أكثر من ذي قبل منذ وطئنا منزل أبي، حتى أوشكت أذني أن تنسى نبرة صوته.

مرت بنا الأيام وتعايشنا على مضض مع بعض إخواني ولكني كنت أسمع من بعض زوجات أبي كلاماً عن أمي وكنت أتحرق شوقاً لمعرفة المزيد ولماذا كل هذه المساحة اليومية تستغل في نهش سيرة والدتي؟ وواتتني الجرأة يوماً فسألت جدتي لماذا كل هذة الأقاويل والأحاديث عن أمي من زوجات أبي بين الحين

والآخر؟ فأجابتني جدتي بصوتها المبحوح وبدون تردد:

- أبوك ما حب أحداً من زوجاته إلا أمك، وتعب كثير لأنها مارجعت له، فبتسمع ياولدي من زوجات أبوك تلميح وغمز ولمز وهذا كله من غيرة وحقد عليها.

بدأت نفسي تنصهر في جنبات منزل والدي وتتعايش مع قاطنيه من خلال الأحداث والوقائع التي لا تخلو من الألم في أغلب أوقاتها... ومنها على سبيل التبيان والتوضيح، أنه في إحدى الليالي بعثني فيها أبي لأشتري له بعض المتطلبات لوجبة العشاء من السوق، ولأن الوقت كان متأخراً فضلت السير داخل الأزقة المظلمة في أحد الأحياء القديمة في المدينة التي نقطنها وأنا أحمل في يدي عصا خشبية لتشعرني بالأمان أقوي بها داخلي الذي استوطنه الذعر، وأذود بها عن كل ما يخيفني، تعثرت بشيء لم تره عيناي ولم يصل صوته إلى مسامعي أيقنت أنه من هول الخوف الذي يضخ في شراييني، ولكن أحسست بأنني ضربته بتلك العصا وفررت هارباً... من ضربت؟ لماذا هربت؟ لا أدري...!!! اشتريت ما طلب مني وعدت لأجد تجمهراً تحت منزلنا، صعدت مسرعاً إلى المنزل لتقول لي زوجة أبي وهي في استقبالي في الطابق العلوي:

- ليه ذبحت نعجة عمك مبروك؟ يا ويلك من أبوك (وأردفت شامتة) ليلتك سوداء...؟؟؟

وبدون أي سؤال وجدت أبي أمامي والشر يتطاير من عينيه ويقذف بحممه نحوي، ارتعدت من تلك النظرات قبل أن تصل يداه إلى جسمي النحيل! قام بصفعي على وجهي لمرات عديدة ثم أحضر سلاسل حديدية وقام بتقييد يدي ورجلي.

وحمدت الله بين دمعة وأخرى أنه اكتفى بذلك ورحل حتى أتمكن من مسح الدماء التي سالت من أنفي ومن بعض أجزاء جسدي، حتى فوجئت به يعود وفي يده سيخ من حديد وفي الأخرى موقد صغير (الدافور) أخذ يحمّي ويُصلي ذلك السيخ المعدني ويمرره على النار وأنا في دهشة حتى بدأ يتغير لون الحديد ويتدرج في الاحمرار.

جميع أجزاء جسمي المنهك في ألم شديد جراء ما لحق بي من ضرب وألم من حيرتي وجهلي بأي مكان في جسدي سوف يغرز أبي ذلك السيخ الذي تغير لونه وتعددت ملامحه وكأنه في طور التكوين وأنا أراقب تلك التطورات شيئاً فشيئاً! وأخيراً استقر رأيه على تعريتي وحرقي في أماكن حساسة.... كنت أصرخ من الألم.... كنت أصرخ من الغربة...... كنت أصرخ لأن الجلاد كان أبي... كنت أصرخ من جهلي بجريمتي الشنعاء التي أستحق عليها كل هذا العذاب.... وخصوصاً مع تعمد أبي حضور الجميع لمشاهد وقائع وأحداث التأديب كما يقول... ولمشاهدة أثر النار مع الحديد في تغيير الجلود على جسد أدمته قلة الحيلة

قبل كل شيء.... وليتعلموا درساً على حساب غربتي ورجولتي وإنسانيتي.... وبعد الانتهاء من مشهد التعذيب الذي حضره جميع أفراد العائلة تركني عارياً ليوم كامل مع التهديد وبزئير مسموع للجميع بعدم مساعدتي... كنت أنظر إلى شقيقي فأجده صامتاً... والدموع تحرق عينيه... وآهاته تسابق أنفاسه وهو يسمع صوت أبي متوعداً أمي التي لا تسمعه:

- انبسطي يا حليمة..... والله لأوريكي فيهم..... والله لأخليك تندمي..... وتبكي بدل الدمع دم.

وكانت تلك الحادثة في الإجازة الصيفية التي يفرح بها الجميع وخصوصاً أقراني ومن هم في مثل عمري ولكنها كانت ويلات وحسرات حيث صدر بحقي حكم من والدي بأربعة أشهر لا أبرح جدران زنزانتي، وأن أبقى ملازماً تلك السلاسل الحديدية التي كانت تزين وتطبق على يدي وتضيق بها قدماي وذلك طوال فترة الحكم حتى لدى أكلي وشربي واستحمامي، والغريب أنها قيدت حتى حبي تجاه والدي ولم ينج من ذلك سوى تفكيري في جرمي وتهمتي وكنت أعجب مقلباً الفكرة تلو الأخرى وأنا قابع في منفاي من السبب الكامن خلف هذه القسوة!!! أهي تلك النعجة الهزيلة، أم هي الحبيبة البعيدة؟... غريب أنت يا أبي!!!

فك أبي قيدي بعد أربعة شهور، كنت حينها قد تعودت الصمت، فلم أعد أسأل كثيراً.... بل الكلمة الوحيدة التي ألفتها

هي كلمة (نعم) وأغلبها كانت بإيماءات برأسي لا تعرف إلا الخضوع.. حتى فوجئت بأبي يجرني يوماً إلى المطبخ وكأني شاة جيء بها في صبيحة يوم النحر إلى القصاب، ويأتي بغطاء القدر الفائح بحرارته الذي كان على النار ليضعه على ذراعي.... ويعيد الكرة.. وكأنه يختبر قدرتي على تحمل ذلك أو أنه كان يتلذذ في تلك الذراع التي تشبه فروع شجرة اشتد عليها قحط الأرض في ريح عاصفة، وهي تتراقص مع ذلك الغطاء الملتهب، رغم صراخ جدتي وابتسامة باهتة من إحدى زوجات أبي ولم أسال لماذا، فقد ألفت التعذيب المفاجئ، ولكن عندما أخبرني أخي بالسبب، صدمت وصرخت وبكيت لأنني لم أقدم على فعل ما اتهمت به، وأخذت أحرفي تجلجل ترافقها الدموع الحارقة:

- والله العظيم ماسرقت ولم أمد يدي إلى مصروف أختي... والله العظيم أخذت فقط ما وجدته في الركن المخصص لي...

واعتقدت خاطئاً بأن الوالد أمر زوجته المسؤولة عن توزيع المصروف بزيادة مصروفي ولم أستغرب فأحياناً تكون له زلة كرم نادرة غالباً ما تحل بعد شوط مثير من التعذيب.

زاد صمتي وانكساري داخل نفسي حتى الكلمة الوحيدة التي كنت أقوى على قولها (نعم) قررت ألّا أتفوه بها واكتفيت بهز الرأس (بكل بلادة وألم) وأحسست في تلك الايام بأن الحزن يطالبني بدين ويلح في طلبه!!

أفقت ذات يوم على صراخ وعويل يهزان الحارة واعتقدت في قرارة نفسي أن جدتي وافتها المنية، ركضت إلى غرفتها لأتأكد ولكني رأيتها خارجة من غرفتها وهي تبكي ولم أسأل كالعادة وانتظرت ليخبرني أحد ماذا حدث! ووجدت زوجة أبي تحتضن أطفالها وهي في حالة هستيرية وتبكي:

- أ تيتمتوا يا حبايبي... راح الغالي... مات سندنا... مات الحبيب... مات أبوكم

لم أشعر إلا وأنا أردد:

- الحمد لله... الحمد لله.

وجلست أكررها حتى جاء شقيقي.... وتمتم:

- أكيد ريحنا بس هل هو بيرتاح في آخرته الله أعلم؟

ابتسمت وانزاح داخل صدري هم كبير، كنت أحس بأني فاقد شيئاً ما؟ نعم... لقد فقدت الألم كنت سعيداً مع نفسي وودت أن أستعجل أخوتي الكبار وأصرخ:

- ماذا تنتظرون؟ لماذا لم نصلّ عليه حتى الآن... أليس إكرام الميت دفنه؟

بعد الانتهاء من مراسم العزاء التي كان الجميع يظهر فيها الحزن والأسى وكنت أشاطرهم ظاهرياً ولكن في داخلي فرح جم.

مساء ذلك اليوم نمت كما لم أنم من قبل ووجدت الانطباع

نفسه عند أخي الصامت، وفي إشراقة الصباح الباكر حضر رفاق المدرسة لتعزيتي فوجدتهم يقترحون عليّ الذهاب إلى الشاطئ لكي يزيحوا عني الهم الذي اعتراني والحزن الذي سكن فؤادي حسب ظنهم الذي كانوا على غير صواب فيه! ورافقتهم إليه أحسست بالحياة، وفي تلك النزهة مع رفاقي بدأ أحدهم الشرب من علبة دواء... ووجدتني أسأله:

- ما هذا؟؟

فضحك وأجاب:

- ما تعرفه.. معقول!!! هذا دواء كحة (السعال)؟

سألته ببراءة:

- أأنت مريض؟

فضحك وقال:

- هذا الدواء يعملك عضلات.

وردّ آخر:

- صح عضلات بس مو في ذراعك عضلات في دماغك عضلات في لسانك؟؟ يعني يقويك ويجريك...

وانفجر الجميع ضاحكين.

يجريني... يجريني..... كانت تلك العبارة تدوي بين خلجات نفسي وتتعمق في فؤادي؟! وكأنني حصلت على كنز مفقود!

وقلت في نفسي:

- وأخيراً وجدت ضالتي التي طالما كنت أبحث عنها.

شربت معهم وكان ذلك في السادسة عشرة من عمري وتوالت الأيام وأصبح دواء الكحة رفيقي وشعرت بتغيير في سلوكي ولا أدري حتى الآن هل كان حقيقياً أم بتأثير من رفقاء الكحة (نسبة إلى دواء الكحة). انطلق لساني بعد أن كان حبيس فمي حتى تعدى الأمر وتتطور ووجدت نفسي أجرؤ وأقول لأخي الأكبر:

- نريد أن نسافر إلى الوالدة، اشتقنا إليها كثيراً.

ولم أصدق نفسي عندما أردف بقوله:

- على بركة الله..

ولم أصدق نفسي أكثر أنني عبرت عن رغبتي في السفر للقاء والارتماء في حضن أمي، سافرنا إلى والدتي وذهبنا إلى منزلنا الحقيقي، المنزل الذي عشت فيه أجمل سنوات عمري، عانقت أبي (جدي) عانقته وبكيت كما لم أبكِ من قبل ورفضت أن أترك حضنه الدافئ... وصممت أن أنام في سريره وفي حضنه..

ولم يسألني عما اعتراني وكأنه يعلم لماذا أرفض أن أبدل ملابسي أمامه... ولماذا كان يربت كتفي بحنانه المعهود، وعرفت لاحقاً أن أخي حكى له عن مسلسل تعذيبي ولم يسألني! خشيت أن يجرحني أو يحرجني.

ومرت الأيام واعتبرت السنوات الأربع التي قضيتها في سجن أبي كابوساً بغيضاً، اعتقدت أن الحياة عادت لتبتسم... عادت لتنسيني سنوات العذاب والذل والإهانه والحرمان، ولكن في ذلك اليوم وأنا في غمار نشوة فرحي أفقت على أمي تربت كتفي وتبكي واستحلفتها بالله أن تخبرني فأطلقت الكلمات الممزوجة بالدموع التي كأنها سهام تتعلق على جدران قلبي البائس ورماح تستحث الخطى نحو فؤادي الهالك لتحتله:

- أبوك... أبوك.... مات.... أبوك مات.

وركضت إلى غرفته مهرولاً فزعاً:

- لا.... أتوسل إليك يارب.... اترك لي أبي....

ورحت أقبل رجليه ويديه وجبينه الذي أغرقته بدموعي... وظللت أبكي حتى حان وقت الجنازة، وبعد الدفن وجدت نفسي أجلس عند قبره لأقول له ما لم أقله يوماً لبشر على هذه الوسيعة، حدثته ساعات طويلة، وأنا أعلم أنه لا يسمعني! شعرت بأنه يحضنني حتى تحت التراب، أشعر بأنفاسه الدافئة، أسمع صدى كلماته الحانية، وأرى ابتسامته المشعه بالأمل وأخاطب نفسي:

- اليوم فقط أصبحت يتيماً!!!

أنهيت دارستي الثانوية، واقتنعت بضرورة عودتي مرة أخرى إلى بلادي وسجلت في دورة تدريبية لدراسة اللغة الإنجليزية ولم أكملها بل ذهبت إلى أخي الأكبر وبكل جرأة طلبت منه أن أسافر

إلى إحدى الدول الأوروبية مثل صديقي أحمد ولم أصدق أيضاً ما سمعته، وافق بدون تردد، ولكنه أخبرني أن تكاليف الرحلة والدراسة ستكون من نصيبي في إرث والدي وبدون تردد أو تفكير أعلنت موافقتي.

سافرت وحيداً وغريباً إلى مدينة لم أطأها من قبل، غريباً عنها حتى بسمعي اجتهدت ونجحت في دراسة اللغة الإنجليزية، ليس حباً في الدراسة فحسب بل للمعاملة الطيبة التي أحاطتني بها المعلمة والتي جرأتني أن أحكي لها عن طفولتي وعن حياتي وطلبت مني أن أتجاوز الماضي وأن أنظر إلى المستقبل وأن آخذ عهداً على نفسي بأن أكون لأطفالي أباً حقيقياً.

عدت إلى بلادي والتحقت بوظيفة كانت تتطلب مني السفر والترحال وأن اقضي حياتي رفيقاً لعنان السحاب! وبراتب أكثر من ممتاز، ومميزات يحلم بها كل شاب في بداية مراحل عمره الوظيفية.

انطلقت رحلاتي، وبدأت أعاني وتكمن تلك المعاناة بأن عملنا مختلط من الجنسين ولعدم قدرتي على التعامل مع زميلاتي، رحت أسأل عن شيء يطلق لساني ووجدت ضالتي في أن أتعاطى الكحول (الشراب) كما أشار أحد زملاء العمل المقربين.

ذات يوم وبحكم ظروف عملي هبطت الطائرة في أحد المطارات الأوروبية ونزل من كان معي من زملاء العمل في

الفندق وانزويت أنا في غرفتي مع رفيقي الدائم (قارورة الشراب) الكحول ولم أكن أختلط كثيراً بزملاء العمل المرافقين، لم أكن أحب سهراتهم، لذلك كنت دائماً أجلس وحيداً مع قارورتي إما في غرفتي وإما على الشاطئ وكنت أعرف السبب، الكل متحدث، الكل منطلق، لا يتوارون مثلي، لا ينحبس صوتهم مثلي، لذلك أبتعد لأنأى بنفسي عن الإحراج أو بمعنى أصح عن الألم الذي أحسه في تلك المواقف.

في إحدى رحلاتي إلى تلك البلاد المتعددة، وفي أثناء الاجازات القصيرة التي نمنحها أثناء العمل، ذهبت إلى المطعم الخاص بالفندق الذي أقطن فيه ولمحتها تتحدث لا أدري لماذا لفتت نظري؟! لا أدري لماذا ظللت أسترق النظر من خلف نظارتي الشمسية لأراقب تصرفاتها وسمعتها تتمتم بلغة غير لغة ساكني هذا البلد وعندما اقتربت منها عرفت أنها تتحدث لغة إحدى الدول الآسيوية التي تقع في الجنوب الشرقي منها (لأنني كنت أفهم تلك اللغة لكثرة سفري إلى هذا البلد) فجأه ودون سابق إنذار ولأنها كانت خجولة مثلي تجاسرت وحدثتها ولا أدري حتى الآن كيف انطلق لساني!!! وكيف خطوت الخطوة الأولى؟ ومن هنا بدأت أسعد أيام حياتي رغم أنها لم تكن أجمل الفتيات في الفندق الذي كنا ننزل فيه، إلا أنها كانت بنظري كذلك وبعد فترة قصيرة بمداها ولكنها كانت بحجم الكون في مشاعر الحب ونيران

الهيام التي جمعتنا، ومع تعلق كلينا بالآخر تعاهدنا على الزواج.

بدأت أتحايل على رؤسائي حتى أكون من طاقم العمل في أي رحلة عمل إلى بلد تلك المحبوبة حيث حبي الأول وبدأت المشاكل وأهمها اعتذاري عن العودة تحت حجج مختلفة وواهية، حولت إلى التحقيق ووجدتني أثناء التحقيق أصرخ بأعلى صوتي وأقول:

- نعم أنا متزوج فتاة في ذلك البلد وزوجتي حامل (مع أن هذا لم يحدث) ولكني ربما عبرت عن رغبة دفينة.

وفوجئت بمديري يقول:

- سأساعدك... ما تشيل هم.... وسأقف معك في محنتك.

ولم أنتظر وقوفه ذلك، أخذت إجازة من عملي وسافرت على متن أول طائرة إلى بلد المحبوبة لأزف إليها الخبر السعيد وبدون أن أطلب منها، أبدت رغبة قوية في أن تدخل إلى دين الإسلام، وفي المركز الإسلامي هناك تلت الشهادتين وقامت بما يتوجب عليها فعله، وأصبحت مسلمة وفي خلال أيام قليلة جاءت الموافقة على طلبي، الذي قدمته إلى السلطات المختصة بشأن الزواج من غير بنات بلادي، وتزوجنا وعدنا إلى الوطن وأنجبت لي بنتاً رائعة الجمال وتذكرت عهدي الذي قطعته على نفسي أولاً ولمعلمتي الغربية بأني سأسقيها حباً وأن يدي لن تمسها إلا بالعطف والحنان. ووفيت بوعدي حتى كنت أغضب

غضباً شديداً من والدتها عندما تصرخ في وجهها ومن هنا بدأت المشاكل وفتحت أبواب المشاحنات اليومية تحت سقف الحب المتوج بهذا الزواج السريع، الذي بدأ بحلم إنجاب الابنة الغالية، وانتهى بالأماني الغائبة! طلبت زوجتي السفر إلى بلدها لترى أهلها وأقاربها ومن أجل أخذ قسط من الاستجمام هناك، تم المراد وسافرنا إلى بلد زوجتي وفور وصولنا ومنذ أن وطئت قدمانا أرض المطار أعلنت رغبتها في الطلاق.

حاولت كثيراً أن أثنيها عن رأيها وأن أعرف السبب ولكنها أبت بإصرار وطلبت مني اصطحاب ابنتي لأنها تريد أن تشق حياتها بدون هموم الأمومة ومتاعبها، طلقتها وتحقق لها مرادها.

بعد إنهاء المعاملة المتعلقة بالطلاق توجهت إلى المطار، «جيلان» وأنا ومستقبل غامض تبدأ سطوره بالدموع!!! أقلعت بنا الطائرة وفي حضني ابنتي التي أسميتها جيلان... جيلان التي كان عمرها آنذاك ستة أشهر يوم طلاقنا، كانت مدة الرحلة مايقارب الاثنتي عشرة ساعة وجيلان تبكى تارة من الجوع الذي أسكته برضاعتها الملأى بالحليب والفارغة من الحنان، وتارة تبكى من قسوة الأم التي يستشعرها الرضيع...

عند وصولنا عهدت بها إلى شقيقتي التي قبلتها بكل ترحاب على رغم تجهم وجه زوجها.... واحترت وقتها ماذا أفعل وكيف أذهب إلى عملي والى متى سأتركها عند شقيقتي.

في إحدى الليالي التي أصارع فيها أفكاري، وفي سيري الهائم بين الطرقات وجدتني دون أن أخطط أقف عند باب أحد الزملاء المشهورين بالفرفشة والليالي الصاخبة وما إن رأى حيرتي حتى دعاني إلى مشاركة الشلة (في تدخين الحشيش) ومن حينها أصبحت ضيفاً دائماً عنده منذ أول نفس تغلغل في صدري. كنت أهرب من نفسي ومن شقيقتي ومن جيلان الحبيبة، ساءت حالتي وأحلت على التحقيق عدة مرات حتى جاء أمر علاجي كمحاولة أخيرة لإنقاذي وسافرت إلى إحدى الدول العربية وبقيت في المستشفى خمسة وأربعين يوماً.... خرجت بعدها أكثر شوقاً إلى الحشيش وعدت من حيث بدأت، وما هي إلا أيام قلائل من رجوعي إلى عملي حتى صدر بحقي قرار الفصل، وسرحت من عملي.

بعد بضعة أيام شاء المولى أن ألتقي أبناء جيراننا الذين جاورونا منذ زمن في الحي القديم وأصروا أن يصطحبوني إلى منزلهم لأحكي لهم أخباري وظروفي ولنسترجع الماضي الجميل ونستذكر بعض أوراقه، وعند وصولي إلى منزلهم وجدت حفاوة الاستقبال من والدتهم وبعد الحديث معهم عما جرى في أيامي السابقة وإثر ذلك أصرت والدتهم أن أحضر جيلان من منزل شقيقتي حفاظاً على حياتها الزوجية ونزولاً عند رغبتها وإصرارها الذي كنت أتمناه، أحضرتها ومن غير أن أجتهد في البحث، علمت

أن لدى تلك الأسرة الكريمة فتاة في سن الزواج وهي التي تقوم برعاية ابنتي، تقدمت للزواج بها رغم انغماسي في تعاطي الحشيش الذي ارتبطت به بشدة وكنت أجلبه معي في رحلاتي الدولية بعد عودتي إلى العمل بعد تدخل شقيقي ورئيسي بوساطات متعددة، تم إرجاعي إلى العمل شريطة ألا أعود إلى التعاطي.

لقد كنت حريصاً أشد الحرص على أن أكون في أحسن حالاتي لأثبت لهم حسن نيتي وما إن تحط الطائرة حتى أسرع إلى الفندق وأطلب من التاجر الإسراع بالمعلوم سلفاً.

ولكني بدأت أطلب المزيد، لم يعد الحشيش يكفيني وامتدت نفسي التواقة إلى المخدر إلى المسحوق الأبيض الذي يجعل الحياة سواداً قاتماً، إنه الهيروين، غرقت فيه وتلطخت في وحله حتى في يوم زفافي تعمدت أن أسقط كوب الشاي على ثوب العرس (مع العلم أن جميع المحيطين بي على معرفة ويقين بأني لا أحب شرب الشاي مطلقاً) حتى أستطيع العودة إلى المنزل للتعاطي بحجة أن أستبدل الثوب الذي اتسخ من انسكاب الشاي عليه.

انتهت مراسم الزفاف واصطحبت عروستي وما إن دخلت المنزل حتى أخذتها لأعترف لها بأنني مدمن وبأنني...... وفوجئت بها تقطع حديثي لتقول:

- أعلم بكل ما تريد أن تعترف به.. وستحدثني عن انجرافك

في طريق إدمان المخدرات.... لذلك أود أن أكفيك عناء الشرح والبوح لأني أعلم بما تخفيه عن كل من حولك...

أصرت عليّ بالعلاج والفكاك من هذا الداء العضال وأقنعتني بوجوب ذلك، وفعلاً تم ذلك وسافرت معها إلى إحدى الدول العربية وأدخلتني المستشفى في شهر العسل وتكررت الانتكاسة ومحاولات العلاج فترة طويلة من الزمان، وطوال خمسة عشر عاماً أنجبنا فيها خمسة أطفال إلى أن قبض عليّ في قضية تعاطي وأدخلت السجن لأول مرة مدة ثلاثة شهور ولم أبال؟؟ خسرت وظيفتي ولم أبال؟؟

تكرر دخولي السجن خمس مرات... أفقت على صدمة عمري! زوجتي تطالبني بالطلاق للضرر وعندما رفضت خلعها القاضي... وخسرتها... خسرت إنسانة احتضنتني.... وابنتي بكل حب، حتى ابنتي لم تعرف أنها ليست هي أمها التي ولدتها بل هي من ربتها إلا بعد أن أصبحت في التاسعة عشرة من عمرها، خسرت من كانت تسهر على راحتي كنت حقاً أنتظر عودتها إلى آخر لحظة! ولكني فوجئت بالصفعة الثانية التي لم أتوقعها قط... لقد تزوجت وارتبطت بشخص آخر وأصبح من المستحيل وجودها في حياتي الآن... وظلت ذكرى حميمة في عذاب حياتي!!!

هرعت إلى مصحة لعلاج الإدمان، لأختبئ منها ومن نفسي ومن أولادي ومن الناس كنت في مرحلة تأمل ماذا كسبت؟ وماذا

خسرت؟ وأين وصلت؟ ربما لجأت إلى المصحة لأبرهن لها أنها خسرتني وأنني سأعود... وأنني لا أستحق أن تتركني.... لتتزوج به! وتلقيت خلال وجودي في المصحة الصدمة الثالثة... تزوجت مطلقتي.... مدمناً! وأفقت من الصدمة لأجدني أكثر إصراراً على المضي قدماً في مراحل العلاج وأكملت البرنامج لأول مرة في حياتي ووجدت نفسي... أخيراً.... أو بالأحرى عقدنا الصلح معاً، مر على تعافي الآن سبع سنوات استعدت فيها أولادي الذين أحبوني دوماً وبقيت صديقاً لهم كما كنت دوماً بوعدي مع نفسي، وبتعمد لأول مرة منذ أكثر من أربعين عاماً استطعت أن أقول أمام الجميع: الوالد الله يرحمه ولم أكن أعني (أبي الذي أحبه... أو جدي) إنما قصدت أبي الحقيقي ما زلت أقولها بصعوبة ولكني على الأقل أصبحت أقول (رحمة الله عليه).. فقدت زوجتي التي أحببتها ولكني أخيراً وجدت نفسي التي أقدر فيها أنها حتى الآن لم تسئ إلى أبنائي طوال عشرين عاماً حتى في سنوات إدماني كنت حريصاً أشد الحرص عليهم وعلى مشاعرهم ولكني أعترف بأنني قصرت في واجبات كثيرة ولكنهم لم يخافوا مني يوماً ولم يرهبوني أو يخشوني ولم تحبس ألسنتهم رعباً أمامي، ربما خسرت أربعين عاماً من حياتي.... ربما ذقت طعم المرارة... ولكني أخيراً وجدت نفسي وتزوجت بامرأه من أقاربي، ولدي كنز عظيم الآن أبناء أربعة وزوجة مخلصة.

## بوح الأسرار

بعد الانتهاء من رحلة المأساة والخوض في تجارب الألم التي جلنا فيها بين تفاصيل الأسرار التي تغمر أعماق هذا العالم السحيق الذي تغيرت فيه المفاهيم واختلفت فيه الموازين وتبدلت القيم، لابد لنا من وقفة صادقة مع النفس للتصدي لمواجهة زحف هذا العدو... هذا العدو ذي الجيوش الخفية والأسلحة الفتاكة.. هذا الجيش الذي فتك بشبابنا ودمر أحلامنا وأطفأ شمعة أجيالنا وغدا شبحاً يلوح في محيط الأسر وخطراً يبث سمومه في كيان المجتمع وينخر لبناته.

فأين دورنا من هذا؟

هل نقف مكتوفي الأيدي ومسلوبي الإرادة لخطورة الموقف وصعوبة التعامل مع هـذا العدو وجيوشه واستراتيجيته في النزال وعدم وضوح معالمه في هذه المعركة!

إن الحرب مستمرة والظاهرة منتشرة والمستقبل القريب ينبئ بخطر قاتم، وإذا تقاعسنا وانطوينا على أنفسنا فإن هذا الداء سوف يطرق باب كلٍّ منا.

فإنه يتحتم علينا توحيد الصفوف وتضافر الجهود لا بالأقوال المنمقة والشعارات الرنانة، بل بالأفعال الصادقة... نعم إنها الأفعال التي تغير الأحوال، بأفعال كل فرد منا وكل مسؤول عنا، والدور الهام لأفراد المجتمع، كلّ في موقعه أياً كان دوره، فانتماؤه إلى هذا الكيان يحتم عليه رسالة عظيمة وأن يقوم بدوره لمكافحة هذه الآفة اللعينة سواء بالتوعية والإرشاد لمن حوله أو بالمساعدة لمن وقع فريسة لهذه السموم القاتلة بالتخلص والعلاج منها أو بالتعاون الجاد والمخلص مع الجهات الأمنية المتخصصة للقضاء على هذا العدو القاتل.

فالتعاون بين المواطن والجهات الأمنية أمر وطني مطلوب وفعال وذلك من أجل المحاولة للحد من انتشار هذه الظاهرة التي أصبحت هاجساً يقلق كل محب لهذا الكيان وغيور على هذا الوطن.

## المؤلف في سطور

- عادل علي عبد الرحمن آل ضيف الله الغامدي، سعودي الجنسية.
- طالب دراسات عليا ـ قسم علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية (تخصص خدمة اجتماعية) في كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ جامعة الملك عبد العزيز في جدة.
- حاصل على دبلوم العمل الاجتماعي والمصطلحات من جامعة نيو ساوث ويلز (UNSW) في مدينة سيدني بأستراليا.
- حاصل على شهادة البكالوريوس في الخدمة الاجتماعية من كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة.
- عمل أخصائياً اجتماعياً في مستشفى الأمل في جدة (لعلاج الإدمان على المخدرات) لما يقارب 8 سنوات ، ثم انتقل

للعمل في وزارة الشؤون الاجتماعية، فرع منطقة مكة المكرمة (جدة).

- كاتب صحفي في العديد من الصحف اليومية، كان آخرها (كاتب معتمد) في صحيفة الحياة، مهتم بالشؤون والقضايا الاجتماعية.
- محاضر في دبلوم مرشدي التعافي المعتمد من عمادة خدمة المجتمع والتعليم المستمر في جامعة الملك عبدالعزيز - جدة.
- شارك في إلقاء العديد من المحاضرات التوعوية عن المخدرات في مؤسسات اجتماعية مختلفة (تربوية ، صحية، عسكرية....)، إضافة إلى المشاركة الإعلامية في العديد من البرامج الاجتماعية التلفزيونية والحوارية عبر القنوات الفضائية.
- عضو الجمعية السعودية لعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية.
- عضو الجمعية السعودية للدراسات الاجتماعية.

لإبداء الآراء على البريد الالكتروني للمؤلف

**Sw_adil@hotmail.com**

# المحتويات


الاهداء ........................................ 7

المقدمة........................................ 9

قبل البدء...................................... 11

شكـراً... أديب! .............................. 13

وقفة...!!!.................................... 35

لاعب المقابر! ................................ 37

وقفة...!!!.................................... 53

أنثى ولكن...! ................................ 55

وقفة...!!! .................................. 69

فرحة الموت .................................. 71

وقفة...!!!.................................... 87

نهاية النهاية! ................................ 89

وقفة...!!!.................................... 115

أربعون عاماً... فقط!!! ........................ 117
بوح الأسرار ........................ 137
المؤلف في سطور ........................ 139

كانت تمر الليلة تلو الأخرى بغيومها الكثيفة لتسدل وحشتها المميتة على كل الأرجاء، تتغلغل إلى أعماقي وأستشعرها بكل فؤادي وعيناي ملازمتا السمر وكأنهما خلقتا للسهر!... الدموع هي البلسم الذي يغسل كل الألم ويزيل الهمّ من تلك القلوب المتعبة ولكن عندما تنضب دموعك في قمة اليأس ولا تجد حتى الدمعة لتخفف تلك الأوجاع القاتلة التي تلازم الأنفاس... وتجلجل مع الآهات وتتصارع بعضها مع بعض للخروج إلى العالم الفسيح لتريح ما بداخل ذلك الفؤاد المتعب.. ولكنها تختنق وتموت في قمة بوحها... كل ليلة تمثل ولادة لأحزاني... أقبع في غرفتي وفي إضاءات ظلماتها في كل أركانها أتأمل شرفتي التي تجاورني، أنظر إليها نظرة متأملة أرى أوجاعي تصطف الواحد تلو الآخر يدفع أولها آخرها وأنا متوسدة ذراع الخوف... أتجرع عذاب الأم... ظلم الزوج... قساوة القريب... وإجحاف الصديق، كان ليلي كنهار الأعمى... ظلاماً دامساً!

ISBN 978-9953-71-962-7